

## قلْبٌ تَعَلَّقَ بِاللَّهِ، فَشُغِلَ عَنْ سِوَاهُ

وإنه لمَّا يبعث على الرضا والأمل، أن وجدنا أن الصورة الايمانية المميزة هي الطابع الذي يلحمه قارئ أشعار «في رحاب الأقصى»، فلا يكاد يجد قصيدةً أو بيتاً إلا وهو على ذلك شاهد مؤكَّد، حتى ليحسُّ قارئٌ متذوِّقٌ، فَمَهُ سليمٌ، أن الديوان سُعِلَةٌ ايمان، تدفقت، فأنارتْ دُرُوبَ أفكارٍ كانت من قبل معتمة، وفتحت مسالك عقولٍ، كانت من قبل خامدةً خاملة، هو كوكبٌ هداية، وضياءٌ حقٌّ مبين، ووخزةٌ مؤلمة في قلوب غافلين تقول: أما للسبب من آخر؟ أما للقلوب من صخوة؟ أما للعقول من وثية؟ وإلا، تمتعوا باللغو وباللغو، فالنار المصير. بهذا العزم الايماني الأكيد، بهذا الحماس الذي لم يُشعلهُ غيرُ تقوى، بهذا القلب الذي ما عرَفَ استسلاماً لغير الله، وجدناه يقرُّ حقيقةً لا يجحدُها مسلم: إنا لله، إنا لدينه فداء:

وَعَدْتُ أَقْطَعُ عَهْدًا لَسْتُ أَخْلِفُهُ

بأن أكونَ لإسلامي وإيماني<sup>(١)</sup> فإنما خُلِقْنَا للعبادة، والشاعر المسلم لا تغيب عنه حقيقة كهذه، فهو لم يقل «سأخدم اسلامي وإيماني»، لم يقل «سأحرص على اتباع أوامر واجتناب نواه»، وإنما كان قوله «أكون لإسلامي وإيماني»، فالعبد الأواب لله في صلاته ونسكه ومحياه ومماته، أكله وشربه باسم الله، نومُه ويقظته، حركته وسكونه، كلامه وصمته، إبصاره وغضه، فعله وقوله، وهاجس نفسه، كله... لله، بهذا الفهم وحده يكون المرء - وبحق - لله العظيم المتعال.

وهلاً سألنا ماذا يبتغي شاعرنا من وراء ذلك كله، إنه يبادرنا فيقول:

وهل أظُلُّ على عهدي أوثقه

لا أبتغي غير جناتٍ ورضوان

(١) في رحاب الأقصى ص ١٤٧.

أسترحمُ الله في أفياءِ كعبته  
 وأسألُ الله في سرِّي وإعلاني  
 بأن يمنَّ على نفسي بهدأتها  
 حتى أمزق بالطاعات عصياني<sup>(١)</sup>

فلقاء العبدِ ربِّه نظيفاً قلبه، طاهرةً روحه، زكيةً نفسه، بيضاءً صحيفته،  
 عطرةً أعماله، شريفةً سيرته، مرضيةً سريره، جريئةً علانيته، خالصةً لله وحده  
 عبادته، ليس بالأمر اليسير. وما أجمل قوله: «أمزق بالطاعات عصياني» وما  
 أبلغه! وما أعظم أثره! فهو لا يعتزم «الحفاظ» على الطاعات، وهو لا يعتزم «هجر  
 المعاصي»، ولكنه يريد أن «يمزق» العصيان و«الطاعات»، وواضح ما في  
 التمزيق من ازدراءٍ ومقت، وترفعٍ عن مثله، وفي مثل هذا التعبير الصادق نلمح  
 عاطفةً متقدة، وإحساساً يُشعلُه حرارةُ إيمان، وينقيه صفاءً شعور. ومن شاء أن  
 يستزيد فليقرأ بعين البصيرة:

قد كنتُ يوماً تائهاً  
 واليوم يا ربِّي وعيتُ  
 ياربَّ مَنْ لي غيرُ نورِك  
 إن ضللتُ وإن غويتُ  
 فإذا نوئتُ البرَّ يا الله  
 فاقبل ما نوئتُ  
 أنا إن رميتُ ضلالتِي  
 فبسَّهم ربِّي قد رميتُ  
 إن كنتَ تعرضُ جنَّةً للبيع  
 بالنفس اشتريتُ  
 أو كنتَ تدعوني إلهي  
 للرجوع فقد أتيتُ<sup>(٢)</sup>

(١) ص ١٤٨.

(٢) ص ١٦٧ و ١٦٨.

الله الله! ما أشدَّ أثره من شعر! وما أصدق لسانَ شاعرٍ نثت ما في قلبه! أقسم  
أنني حين قرأتُ. الأبيات كان بي سنَّةٌ وغفلةٌ، فما أن قرأتُ حتى أحسستُ بحرارةِ  
تعترى جسدي، وأحسستُ وكأنَّ سلكاً مكهرباً وخزني، وهذه سِمَةُ الشعرِ  
الصادقِ الحي الذي يثير ويؤثر فيهِزُّ.

وما أجدر شبابنا أن يدعوا ربَّهم العظيم بهذا الدعاء صباح مساء!، ما أحوَجَ  
تلاميذنا في المدارس والجامعات أن يحفظوا شعراً هذا شأنه: يفيضُ بالتوبة،  
ويعجُّ بالايمان، أقول وفي نفسي ألم: ليت القائمين على مناهجنا التعليمية  
يريحوننا من أشعار سقيمة مهلهلة، أقرؤها ليحفظها الأبناء، كما حفظها الآباء،  
حفظناها ورددناها، فما حرَّكتُ فينا ساكناً، ولا أثارتُ فينا حميَّةَ دين، ما زادت  
على أن بثتُ فينا شعوراً بالميل نحو الجنس الآخر، دون أن يسَّحونا بسلاحِ  
ايمانٍ يضبط أو يحكم، ولربَّما بثتُ في نفوسنا شعوراً وطنياً، ولكنه هزيل خاوٍ  
أجوف، كبناء من غير أساس.

أبناؤنا كعجينة في أيدينا، نشكلها أيَّ الأشكال نوذُّ، فإذا ما اشتدَّ ساعدهم  
واستدَّ، صعَّب علينا التغيير والتأثير، فكانوا عبئاً لا عوناً، فما أحسن أن نربِّيهم  
على أخلاق الاسلام! ما أجمل أن ننمِّي فيهم روح ايمان قويم، ورجولة حقة،  
ما أحوَجَ أن نبصِّرهم بما ينفع، فنجنِّبهم ما يضرُّ، بذلك ترتقي أمتنا، ويصلحُ  
حالتها، وتعظمُ هيبتها، فتظلُّ عزيزةً مصينةً.

أبيات شاعرنا - فوق هذا -، لها نعمةٌ إلى القلوب المؤمنة حبيبة، وعلى  
أسماعها خفيفة، وعلى أحاسيسها لطيفة، ولنقرأ بعيون العقلوب قوله مناجياً ربَّه  
العظيم:

إن كنتَ تعرضُ جنَّةً للبيعِ  
بالنفسِ اشتريْتُ  
أو كنتَ تدعوني إلهي  
للرجوعِ فقد أتيت

الله الله! أهنالك أعظمُ، أو أجملُ، وأعذبُ من مناجاةِ عبدٍ مؤمنٍ لربِّ قريب

رحيم!!، أهنالك ما هو أعلى من جنة الله؟ لا والله، فما ثمنها؟ ثمنها غالٍ نفيس... النفس، أهنالك داعٍ أعظم من الله؟ لا والله، فبماذا نردُّ أو نجيب؟ لبيك اللهم لبيك.

وشاعرنا لا يلبي كما لبي غافلون، وهو لا يردُّ باللسان ما ينفي القلب، وهل الله سبحانه ينظر إلى الألسنة والصور!، لا، إنما ينظر إلى القلوب والأعمال، فوجدنا شاعرنا يلبي... بالقلب:

أذبتُ خطاي في زمزم  
ولببتُ بالقلب قبل الفم  
وطفتُ وفي أضلعي حرقَةً  
تسبحُ لله عبرَ الدم  
وقببتُ ما قبل المصطفى  
سلامٌ على ذلك المبسم<sup>(١)</sup>

ومن ذا الذي حجَّ، ورأى جموعَ الحجيج تطوف حول بيت الله الحرام، كلُّ سائلٍ ربه عفوًا ومغفرة، كلُّ سائلٍ ربه أن يتجاوز عن سيئاته، كلُّ يودُّ فتحَ صفحةٍ جديدة، ليهجر المعاصي والآثام، كلُّ يردُّ هذا النشيد الأخذ بمجامع القلوب: لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك لبيك، إنَّ الحمد والنعمة لك والملك، لا شريك لك، حتى إذا ما بزغت شمسُ يوم النحر، ردّدوا نشيد الحق المدوي: الله أكبر، الله أكبر، الله أكبر، لا إله إلا الله، الله أكبر، الله أكبر والله الحمد، من ذا الذي شهد مشهداً هذا حاله فلا تثور أهبالُ فؤاده، ولا تهترأ أوتارُ إيمانه!، ولقد وجدنا شاعرنا يقول:

ربُّ هب لي من فيضِ نورِكَ نورا  
واهتِك الله عن فؤادي الستورا  
وألين ربُّ ما قسا من فؤادي  
فلقاء الحبيب يشفي الصدورا

في حمى بيتك العتيق تعالت  
تليبات تعانق التكبيرا  
تنشد الحب والسلام وترجو  
أن ينال الحجيج عفواً كبيراً

وليتأمل القارئ هذه الصورة الجميلة اللطيفة، التي أوردتها شاعرنا، صورة التليبات التي «تعانق» التكبير، فمن الحجيج من يلبي، منهم من يكبر، منهم من بدأ بالتلبية، منهم من أنهى، منهم من بدأ التكبير، منهم من فرغ، منهم من تنطق من فيه «لييك»، ومنهم من تخرج عطرة عبقة «اللهم»، منهم من يبت لسان قلبه باعتراز وإباء «الله»، ومنهم من بث وفرغ وبدأ يقول «أكبر»، وكل هذا التداخل في نطق الكلمات، وكأن التليبات «تعانق» التكبيرات بحق، في مثل هذا التعبير الأخاذ المعبر جمالاً أي جمال.

شاعرنا حاسب حساباً ليوم تبيض وجهه فيه، وتسود أخرى، ليوم تسعر فيه الجحيم، فإن لدى ربنا أنكالاً وجحيماً، وطعاماً ذا غصة وعذاباً أليماً، فوجدناه يسأل الرحمن الرحيم أن يرحم، ورأيناه يناجي الرب العظيم سبحانه، بهذه المناجاة الصادقة:

يا إلهي ويا مجير الحيارى  
من ضلال أكرم بربي مجيراً  
فإذا اسودت الوجوه إلهي  
جئت أرجوك نضرة وسرورا  
وإذا صارت الجحيم مقاماً  
رحت أرجوك جنّة وحريراً  
وإذا غصت الحلوق بكأس  
رب هب لي من الشراب طهوراً<sup>(١)</sup>

إنه يوم «لا بيع فيه ولا خلال»<sup>(٢)</sup>، ويوم «تشخص فيه الأبصار»<sup>(٣)</sup>.

(١) إبراهيم ٤٢.

(٢) إبراهيم ٣١.

(٣) ص ١٥٢.

ومَنْ ذا الذي ينجو من وساوس شياطين الإنس والجن؟ أليست الشياطين تزئِن للمرء انغماساً في ملذّات وضيعة؟ أليس حولنا أشياء كثيرة تُغري بفسادٍ وإفساد؟ ألسنا نرى في شوارعنا فساداً أيُّ فساد؟ ألسنا نسمع في مجالسنا العامة تباهاً برذائل؟ ألسنا نقرأ في صحفنا مغرياتٍ بخمرٍ وربا وسَهْرٍ خليع؟ ألمْ نوجد بيوتنا - وباختيارنا - معلماً للردائل سَمِيناه «التلفاز»؟ حتى سياراتنا الكبيرة العامة رأيت فيها ما لا يسرُّ، فلقد شاء ربِّي سبحانه أن أستخدمها فترةً تقرب من عام، من الزرقاء إلى الجامعة الأردنية، وكم كان ألمي كبيراً حين وجدت السائقين - هداهم الله - ورغماً عنّا، «يطربوننا!»، وبكلِّ غثٍّ خليعٍ من أغانٍ ساقطة، وشبابٍ وفتياتٍ يسمعون! وازاء هذه الهجمات الشرسة غير المبالية بدينٍ أو خلقٍ، ازاء هذه الهجمة الحاقدة يوجّهونها بخبثٍ وتخطيطٍ وكيدٍ، ازاء هذه الهجمات التي تعصف بالأفهام - ومن كلِّ الجهات -، لا يحمي المرء من مكرها غيرُ دينٍ، دينٍ كان وسيبقى الشوكة في حلوق الكائدين، دينٍ يكون سداً يصدُّ موجات «قرامطتنا» الحاقدين، دينٍ يكون «قلعةً رَيَضٍ» يعزُّ قهرها لدى جحافل الغازين، ويطيش سهمها لدى الباغين، دينٍ تتحطم أمام ضرباته مكائد الشياطين، دينٍ تكفَّلَ الله بنصره من فوق سموات سبع، دينٍ حين حَكَمَ ونطق ارتعدت فرائصُ طواغيت الأرض أجمعين، وحين قتلناه، صرنا أضحوكة، دينٍ تذوي مطامعُ الدنيا كلها وهو باقٍ في القلوب، وشاعرنا العظم - كغيره من عباد الله - تشدُّه هذه القشور محاولةً إبعاده، ولكنه - لا لقوةٍ لديه خارقة - ولكنَّ بفضل الدين، بفضل القرآن العظيم يهزُّ أوتارَ القلوب، لا يابه، لا يلين، لا يستكين، ويُدير ظهره لهذا كلِّه، ولسانُ حاله لسانُ حالِ الشاعر العربي الذي يقول:

يا ناطح الجبل العالي ليلكمه  
أشفق على الرأس لا تشفق على الجبل

ولسان حال الاعشى ميمون بن قيس، حين قال في لامية له مشهورة:

كناطح صخرة يوماً ليوهنها  
فلم يُضِرّها، وأوهى قرنه الوعل

وما لنا وقول هذا أو ذاك، فعند شاعرنا ما هو خير، وأشفى غليلاً، وأبرأ  
سُقماً، فلقد صَوَّرَ وسوسة الشيطان وَرَدَّعَهَا فقال:

كَلَّمَا وَسَّوسَ شَيْطَانُ الْهَوَى  
قُلْتُ يَا شَيْطَانَ سُحْقاً لِسِرَابِكَ  
أَوْ دَعَانِي خَاطِرٌ يَعِصِفُ بِي  
قُلْتُ يَا شَاعِرُ رَفِقاً بِشِبَابِكَ  
كَيْفَ تَشْرِي ضِلَّةً بَعْدَ هُدًى؟  
وَتُؤْمِنِي النَّفْسَ ظَلَمَماً بِخِرَابِكَ  
عُنْدَ إِلَى اللَّهِ وَرَتَّلْ آيَهُ  
فَلَعَلَّ اللَّهُ يَرْضَى بِمِثَابِكَ  
رَبُّ لَنْ يَهْدِينِي فِي حَيْرَتِي  
غَيْرُ نُورٍ وَسِنَاءٍ مِنْ كِتَابِكَ<sup>(١)</sup>

أو ليس رمي الجمار إحياءً لصمود عقيدة، وانتصار دين علي وسائس  
شيطانٍ رجيم؟ لقد رأى شاعرنا مشهد الحجيج ترمي الجمار، فلم يَغِبْ عن فِكْرِهِ  
قولُ المصطفى عليه السلام: «يوشك أن تنداعى عليكم الأمم، كما تداعى  
الأكلة على قصعتها، قالوا: أو من قلة يارسول الله؟ قال لا، ولكنكم غثاء كغثاء  
السيب» وصدق سيدي رسول الله عليه الصلاة والسلام، نحن نُعدُّ بمئات  
ملايين، وعدونا لا يقارن بنا عدداً، فوالله لو كنا ذباباً يطن ما غلبنا، وشاعرنا - وقد  
عرفناه غيوراً على حمى الله - رأى، كما رأيت، ورأى غيري، جموع الحجيج  
ترمي الجمار، فاثار المشهد المؤثر في قلبه حمية إسلامه، وتذكر الأعداد  
والأعداء، وأنى لمسلم حسن إسلامه أن ينسى أعداء دين الله، فكان منه هذه  
الالتفاتة اللطيفة، هي لطيفة، ولكنها تجرح فؤادي الدامي:

لَوْ تَدَاعَى قَوْمِي لِسَاحِ جِهَادٍ  
مَثَلَمَا أَقْبَلُوا لِرُمَى الْجَمَارِ

(١) ص ١٥٧ و ١٥٨.

لَهَزَمْنَا الْعَدُوَّ فِي كُلِّ أَرْضٍ  
وَدَحَرْنَا جِحَافِلَ الْكُفَّارِ  
وَلِبَاتَ الْأَقْصَى عَزِيزاً يَبَاهِي  
هَامَةً النُّجْمِ أَوْ عُرُوسَ النَّهَارِ  
وَلَسُدْنَا فِي الْكُونِ نُعْلِي صُرُوحاً  
شَامَخَاتٍ مِنْ عَزَّةٍ وَفَخَارٍ<sup>(١)</sup>

وأضَعْنَا الجِهَادَ! ففَاسَيْنَا الذُّلَّ، أَضَعْنَاهُ وَقَتَلْنَاهُ، وَتَغْنِينَا بِسَلَامٍ هَزِيلِ ذَلِيلٍ،  
وَمَا زَالَتْ أَصْدَاءُ مَذِياعَاتِنَا - دَامَ عَزُّهَا!! - أَثْنَاءَ حَرْبِ حَزِيرَانَ «المجيدة!!»  
تترَدَّدُ، كُنَّا نَسْمَعُ المَذِيعَ «يَزْمَجِر!» و«يَتَوَعَّد!»، كَانَ يَقُولُ لِمُقَاتِلِينَا: «أَمْ كَلْثُومٍ  
مَعَكُمْ فِي المَعْرَكَةِ!!»، «شَادِيَةِ مَعَكُمْ!!»، «شَرِيفَةَ فَاضِلٍ تَقَاتِلُ إِلَى  
جَانِبِكُمْ!!» فَوَاعِييَاهُ وَاعِييَاهُ، ظَنَنُوا أَنَّهُمْ شَدُّوا أَرْزَ مُقَاتِلِينَ، وَمَا دَرَوْا أَنَّهُمْ أَلْهَوْا  
بَطْبِلٍ وَمِزْمَارٍ:

وَطَوَوْا رَايَةَ الجِهَادِ سَكَارِي  
وَتَلَّهُوا بِالطَّبْلِ وَالمِزْمَارِ<sup>(٢)</sup>

وهذا يكفي ليصيبَ ذا الإحساسِ بجنونٍ، يقولُ شاعرنا - لا فُضَّ فوه -:

لَا تَلْمَنِي أَنْ مَسَّ عَقْلِي ذَهَوٌ  
أَوْ تَدَاعَى تَحْمُلِي وَاصْطَبَارِي  
فَدَمَوْعُ الْأَيْتَامِ عَبْرَ الحَنَائِيَا  
سَلَبَتْ فِي الخَطُوبِ كُلَّ وَقَارِي  
وَجِرَاحُ الْأَقْصَى تَمَرَّقُ صَدْرِي  
وَعَدُوُّ الْإِسْلَامِ يَحْتَلُّ دَارِي<sup>(٣)</sup>

أَوْ مُسْلِمٌ ذَاكَ الَّذِي لَا يَنْقَطِعُ قَلْبُهُ أَلَمًا عَلَى دَمِوعِ الْأَيْتَامِ؟ أَوْ مُسْلِمٌ ذَاكَ  
الَّذِي لَمْ يَغْزُ وَلَمْ تَحْدِثْهُ نَفْسُهُ بَغْزًا؟ يَا مَنْ رَضِيَ بِخُنُوعٍ، يَا مَنْ ضَلَّ، يَا مَنْ  
زَعَمَ رَجُولَةً، يَا مَنْ ادَّعَى عَزَّةً، وَحَلَفَ بِشَرْفٍ، يَا شَاعِرَ المَجُونِ، وَيَا دَعِيَّ

(٣) المكان السابق.

(٢) ص ١٦١.

(١) ص ١٦١.

الأدب: فلتتلمذ على الشاعر الشاعر، الشاعر الذي شعر وأشعر، شعرَ بأمور أمته ودينه، وأشعرنا بما اعتمل في النفس، وما دار في العواطف، وكمن في الشعور، فجاء شعره نابعاً من قلب يتقد، فلم يرده عن قلوبنا راداً، فأين شعر هذا حاله من أشعار متشاعرين لاهين، مجت أدواقنا سُخْفهم كلّه، فلم يجاوز الأذان.

شاعرنا يعي جيداً أن الحياة ليست ضحكاً وملء بطون، فما منا من أحد إلا ومسؤول عن العمر فيم يفنيه، وعن الشباب فيم يبليه، ولا خير في شباب لا يُغتنم، ولا عقل لمخلوق، شاعراً كان أم غير شاعر، أمن مكر الله، فهو ملاق الرب لا محالة، وسيكشف «الرصيد» في «بنك» الله، ستبلى السرائر، وتكشف الأغطية، وستصبح الأبصار... من حديد. فوجدنا شاعرنا يعي هذا فيقول:

أنا إن لم تذب حياتي كفاحاً  
ونضالاً يدك شم الصعاب  
وشبابي إن ضاع لغواً وهذراً  
لا جهاداً... فيا ضياع الشباب<sup>(١)</sup>

إن المتصفح لديوان «في رحاب الأقصى» يحس أن صاحبه أبا جهاد متعلق قلبه دائماً بالجهاد، أملاً أن يلقي ربه على شعبة إيمانية حقة، فيدخل من أفسح أبواب الجنة تظللها السيوف، فقد أيقن أن رباط يوم وليلة خير من صيام شهر وقيامه، ولغدوة أو روحة في سبيل الله خير من الدنيا وما فيها، لقد وجدناه يسأل ربه شهادة، ووجدناه يحث بني الإسلام كي يلبوا نداء الله بالإعداد للأعداء، وحثهم على الشجاعة والرجولة والإيمان الحق، حثهم على الغيرة على حدود الله، وما ذلك كله إلا إعداداً ليوم ينجلي فيه الحق من الباطل، نعم، تعلق قلبه بإيمان وجهاد، فامتلاً، والشيء إذا امتلاً رد كل قادم أو طارق، كما قال الشاعر العذري جميل بن معمر المعروف بجميل بثينة:

لو كان في صدري كقدر قلامه  
فضلاً وصلتك أو أتتك رسائلي

(١) ص ١٧٣.

ملاً الجهاد قلبه كله، فلا مجال فيه لزائر، أو طارئ، أو طارق، ولولم يكن قلبُ شاعرنا كذلك، لما كان منه هذا الموقف من هذه الصببة، التي قصَّ علينا قصَّتها معه:

ساءَلتني في حمانا ظبيةً  
أتحبُّ الشوق في عين صبية؟  
قلتُ لا أعشق طرفاً ناعساً  
ونحدوداً وشفاهاً قرمزيةً  
إنما أعشقُ صدرًا عامراً  
يحملُ الموتَ ويزهو بالمنية  
أدركت سرِّي وقالتُ ظبיתי  
أنت لا تعشق غير البنديقية!<sup>(١)</sup>

وإن كنتُ لا أخفي عدم رضاي عن إسناد «ظبية» إلى ياء المتكلم في البيت الأخير.

ومن تعلق قلبه بجهاد تعلق قلبه بالقدس، مسرى الرسول الكريم عليه الصلاة والسلام، والذي عرج منه إلى السموات، فمحببة القدس محبة إيمان، ومحببة القدس امتثالٌ لأمر الله، حين بارك حولها، هي جنة الأرض برياضها، وماؤها من «زمزم»:

يا قدسُ يا أنشودة في فمي  
ويا مناراً في ذرى الأنجم  
في كلِّ أفقٍ منك تسبيحةٌ  
وكلُّ شبرٍ دفقةٌ من دم  
وكلُّ روضٍ نفحةٌ من شذى  
وماؤك الرقراقُ من زمزم<sup>(٢)</sup>

هذا الربط الذي جعله شاعرنا بين القدس ومكة، بين ماء القدس الرقراق

(١) ص ٢٧٠.

(٢) ص ١٨.

وزمزم مكة الطاهر، بين أولى القبليتين وبين بيت الله الحرام، يجسّد روح الآية الكريمة الأولى في سورة الاسراء .

ومن ذا الذي يقرأ قولَ شاعرنا:

يا قدسُ يا صرْحَ العُلى شامخُ  
شلتُ يمين الماكرِ الثعلبان  
قد آن للظلمة أن تنجلي  
ويسقطُ الباغِي ويعلو الأذان<sup>(١)</sup>

فلا يذكر الفتح العظيم، فتح مكة، عندما فُهر الفاسقون، وُدّد شملهم، وكُسرت أصنامهم، وجاء الحق وزهق الباطل، وارتفع فوق بيت الله العتيق نداءً أخذ بمجامع القلوب، وأثار كوامن الفطرة التي فطر الله الناس عليها، فعمّ أرجاء مكة، نجودها ووهادها، وكان صوتاً جديداً على مكة، ولكن بكث لمسمعه عيون القلوب: الله أكبر، الله أكبر، أشهد أن لا إله إلا الله، أشهد أن محمداً رسول الله. وشاعرنا يودُّ ويطمح أن يكون لبيت الله الأقصى ما كان لبيت الله الحرام، وما ذلك على الله بعزير.

الغاصبون «تفرعنوا»، والبغاث بأرضنا استنسرت، واستأسدت كلاب، وفي قدسنا، قدس الاسلام، صال وجال وتمرد شذاذ:

إن دمر «الوغد» بيتاً كنت تسكنه  
فالقلب بيتك والوجدان والمقل  
إن عربد العليج في محراب قبلتنا  
وحل في قدسنا الشذاذ والهمل  
فذاك مصداق ما كنا نردده  
يستأسد الكلب أو يستنوق الجمل  
كم هد كُفك أصناماً بلا عدد  
وفي غد يتهاوى صاغراً «هبل»<sup>(٢)</sup>

(١) ص ٢٣ .

(٢) ص ٣٩ .

وهل ذاك الوغد مختلفٌ عن هذا؟ أليسا وُغِدِي كُفْرٍ وشُرْكٍ وإِجْرَامٍ؟ وهل ذاك العَلِجُ مختلفٌ عن هذا؟ أليسا عِلْجِي كُفْرٍ وعَصِيانٍ؟ إن كانت أيادِ مؤمنة طاهرة كَسَّرَتِ هِبلَ وعَزَّى واللاتَ ومناةَ ويغوثَ ويعوقَ، فإن الأيادي المتوضئة متأهبة لتَحطِّمَ أصنامَ اليومِ .

وَعَدَّتْ حَالُنَا لا تَسُرُّ، وِعْدَا ذُو الإِيْمَانِ يَتَأَلَّمُ لِمَا يَرِي أَوْ يَسْمَعُ، يَسْمَعُ الخَيْرَ فَيَرِي الشَّرَّ، وَيَسْمَعُ الشَّرَّ وَهُوَ شَرٌّ، وَشَاعَرُنَا - وَقَدْ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِ بِرَهَافَةٍ حَسَنَةٍ - يَتَأَلَّمُ لِحَالِ أُمَّةِ الإِسْلَامِ، وَهَذِهِ قَصِيدَتُهُ «بِاسْمِ الشَّعْبِ . . . وَلَا يَدْرِي»<sup>(١)</sup> قَدَّمَ لَهَا بِمَقْدَمَةِ نَثْرِيَّةٍ، لَكِنَّهَا أَشْعَرُ مِنْ شِعْرِ، قَالَ فِي المَقْدَمَةِ:

«إِلَى كُلِّ الذِّينِ يَزْعَمُونَ أَنَّهُمْ يَتَحَرَّكُونَ مِنْ أَجْلِ الشَّعْبِ، وَهَمَّ سَبَبُ شِقَايِهِ وَسُرُّ بِلَانِهِ!

إِلَى الجِلَادِيْنَ الذِّينِ أَذَاقُوا الأُمَّةَ أَلْوَانًا مِنَ المَذَلَّةِ، وَجَرَّعُوهَا كُؤُوسًا مِنَ الهَوَانِ!

إِلَى المَهْرَجِيْنَ عِبْرَ الأَثِيرِ . . . المِتَاجِرِيْنَ بِكِرَامَةِ القَلَمِ!  
إِلَى المَعْدِّيْنَ الذِّينِ لَاقُوا عَلَى أَيْدِي الطِّغَاةِ مَا لَمْ يَلِاقُوا عَلَى أَيْدِي الغَاصِبِيْنَ . . .

أَبْعَثْ هَذِهِ الصِّحْحَةَ فِي وَادِي الهَزِيمَةِ . . . وَتِيهِ الضِّيَاعُ!!! «

وَجَاءَ فِي القَصِيدَةِ أَبْيَاتٌ يَشْعُرُ قَارِئُهَا أَنَّ شِفَاهَ القَلْبِ تَنْطِقُ، وَأُوتَارَ الكَبِدِ تَهْتَزُ، وَشِغَافَ الفُؤَادِ يَذُوبُ، قَالَ:

عَدُونَا وَحَدُوا أَشْتَاتَ بَاطِلِهِ  
وَشَعْبُنَا رَغَمَ نَوْرِ الحَقِّ أَشْتَاتَ  
سَفِينَةُ الشَّعْبِ ضَلَّتْ لا شِرَاعَ لَهَا  
وَالشَّعْبُ حَارَ وَمَا لِلشَّعْبِ مَنجَاةُ  
وَفُلُكُهُ فَوْقَ أَمْوَاجٍ تَقَادُفُهُ  
مِنَ الضَّلَالَةِ قَدْ عَازَتْهُ مَرَسَاةُ

(١) ص ٢٠١ .

وجيلنا ضاع في تيه يمزقه  
 ودرئه ضلّ قد دكته مأساة  
 الجهل والفقير والطغيان يسحقه  
 والكأس والجنس مسلاة وملهاة  
 وباطن الشعب: آلام مبرحة  
 وظاهر الشعب: أفراح وزينات  
 قد هدّه الجوع وانهارت عزيمته  
 وقادة الشعب بالأكباد تقتات  
 كم بددوا المال هذراً في مبادلهم  
 وفي ليالي الخنا ضاعت مروءات  
 في كل يومٍ متاهات تضيّعنا  
 وفي الكوارث تطوينا متاهات  
 شعارنا الحرب والتحرير نرفعه  
 وهل يحرّر أقصانا شعارات  
 ودعوة الحرب من منا يصدّقها  
 إذا تعالت بلا حرب هتافات

تشبّنا وتشعبنا، ففضّ الله الجمع، وبدد الشمل، وتمزّقنا كل ممزّق،  
 لفظتْنا أمم، ومجّتنا أمصار، انشقتْ عصانا، وانقطع النظام، واستشرى الشر،  
 وأعضل الأمر، بلغ السكين العظم، واتسع الخرق على الراقع، فنسأله جلّت  
 أسماؤه جمع شتات أمة الاسلام، وضّمّ ألفتها، ووصل نظامها، لتكون بحق  
 أتباعاً لمحمد عليه السلام، عندها نزهو ونهتف: العزة لله ولرسوله وللمؤمنين.

ويبقى المؤمن في كل لحظات حياته مع الله، وفي الحلّ وفي الترحال، وإن  
 كان غافلون يرون في ركوب طائرة مجالاً لمتعة حسية، فلهوا بمشهد سينمائي،  
 أو لهوا بأغنية أو موسيقى، إن لهوا بتعريف على «رفيق!» لم يربط قلبيهما حبّ  
 في الله، إن تلذذوا بشراب حرام سموه «روحياً»، فالمؤمن يظل في واد غير  
 واديهم، وفي عالم غير عالمهم، يرى في مثل هذا السفر مجالاً لإدراك عظمة

الله في خلقه، مجالاً لملء القلب يقيناً لا يشني بأن خالقنا وحده جدير بالعبادة، مجالاً لإدراك أسرار صنوع الله بسمائه وأرضه وفضائه، مجالاً لتأمل هذا الخلق العظيم أبدعه العظيم، وليقول في نفسه كما قال أعرابي بسيط، البعرة تدلُّ على البعير، وآثار الأقدام تدلُّ على المسير، أفسماء ذات أبراج وأرض ذات فجاج، ألا يدلّان على السميع البصير!!، وخرج شاعرنا من رحلته ليقول كلمة خفيفة على اللسان، ولكنها ثقيلة ثقيلة في ميزان الله، خرج نقى القلب ليقول: سبحان الله، ما أجملها كلمة!، وما أشدُّ أثرها في قلب آمن، ما أكثر ما تريح نفساً صفت، وما أعظم ما تبعث في القلب من اطمئنان حُرْمَهُ «متفرنجون»، لم تخدع مظاهر الحضارة التي فتن بها قوم ضاق أفقهم، فلا علم لنا إلا ما علمنا سبحانه:

والعلم في العصر الحديث  
يضجُّ في آلاته  
يرتاد آفاق الفضاء  
ويمتطي طياته  
والبحر يهدر صاحباً  
والفلك في جناته  
والذرة الصغرى  
مصير الكون في ذراته  
فخرأبه ودماره  
إن ساد حقد طغاته<sup>(١)</sup>

ما أجمل الفن حين يهتدي بنور الدين، ما أعظم ما يجوده الفنان المؤمن، حين يجعل من الطبيعة منبعاً لفنه، فإذا كان القرآن الكريم - كتاب الله الخالد - كتاب الله المقروء المسموع، فإن الطبيعة كتاب الله المنظور، وحين يأخذ الفنان، شاعراً كان أم غير شاعر، فنه ومواده من كتاب الله المنظور، فإنه بذلك يربط بين فنه، وبين حمى ربه، والفنان الأصيل الصحيح، لا بد أن يكون إيمانه قوياً، واعتقاده وثيقاً، واتصاله بخالقه عميقاً، وذلك كله يتجلى في فنه، فلا غنى

(١) ص ١٣٥.

لنا عن أن نرفع من مستوى فننا، ونربأ به عن الانحراف، ما أعظم أن يتدينَ الفنان!، وما أعظم أن يتفننَ الدِّين!، فهما أمران جديران بالتقدير.

وهل من عاقل لا يرى أنَّ أكثر ما يثير اهتمام علماء المدنية الحديثة خرابٌ ودمار وإتعاس وحرَقُ شعوب؟ العلمُ فيه خير وفيه كذلك شرٌّ، فلو سخَّرنا الجهودَ لخير البشرية لأفدنا:

كم مجهرٍ قُربت لنا  
الأبعاد في عدساته  
أو هاتفٍ حملَ الحديث  
مردداً همساته

ولقد كان جلياً، أن شاعرنا لم يغب عن خاطره، وهو في فضاء الله، دعوةُ ربِّ الأرباب إذ يقول سبحانه: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ﴾<sup>(١)</sup>، وكان جلياً كذلك حُسنُ فهمه لقوله سبحانه ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾<sup>(٢)</sup>، فوجدناه يحذّر سطحياً الإيمانَ عميانَ القلوب ليقول:

لا تمتروا في ذاته  
فالكون من آياته  
إن ضجَّ في حركاته  
أو نام في سكناته  
والصبحُ في إشراقه  
والليل في ظلماته  
والشمس في كبد السما  
والنجم في رعشاته  
والجو في إعصاره  
إن هبَّ أو نسماته

(١) آل عمران ١٩٠.

(٢) الروم ٢٢.

والرعد دوى قاصفاً  
والبرق في ومضاته  
سبحانه قد حقق  
الإعجاز في كلماته<sup>(١)</sup>

تفأخرنا بعلومنا وتباهينا، وما درينا خيرها من شرها، وأن ليس كل ما سهل وأراح خيراً، وليس كل ما شق وصعب شراً. أليست إمكانياتنا الخلقية محدودة؟ أليست عقولنا عاجزة عن أن تدرك ما تخبيء الأقدار؟ أليست أحكامنا مبنية على الظاهر؟ إن كنا لا نقتنع بذلك، إن كنا نحمل أنفسنا أكثر مما منحنا ربنا من قدرات، إن كنا مدعين علم غيب، ورؤية خافية، إن كنا نزعم سماع ما خرج على نطاق الآذان، كنا حقاً في غباء لا نُحسد عليه، وكنا كمن يُطلق طلقات مسدسه من قفين - القرية الفلسطينية - ليقتل مجرماً في موسكو أو بكين، سيضحك عليه العارفون. فليعرف الإنسان حجمه، وليدرك قدرته، وليتفهم حقيقة ضعفه كما خلقه ربه، وليؤمن بالغيب كما أمره العليم الخلاق، هكذا يفعل من آتاه الله بصيرة مبصرة، ولذلك وجدنا شاعرنا يقول:

ورب أفق لمن يرتاده جدتُ  
ورب رمس لمن قد ضممه أفق  
والنور يشرق في ظلماء دامسة  
والماء من حاجر الصوان ينبثق<sup>(٢)</sup>

وجدناه يهيب بالشعراء، أن يكونوا ممن استثناهم ربنا سبحانه من زمرة الغاوين المغوين، الذين أماتوا الهمم، وآزرُوا الرذائل، ونشروا السموم، فوجدناه يقول مناجياً ربه العظيم سبحانه:

رب قد أقبلت في ظل رحابك  
خاشع الطرف لدى نور شهابك

(١) القصيدة السابقة.

(٢) ص ١٧٦.

خاضع النفس ذليلاً صاغراً  
 وفؤادي ساجدٌ يجثو ببابك  
 كم بكى يا ربُّ في سجدته  
 إذ يهاب الهول في يوم حسابك  
 يرقب الغفران في يوم الظما  
 وهو يرجو الورْدَ مِنْ فَيْضِ شرابك<sup>(١)</sup>

صلاة الله وسلامه عليك يا سيدي يا رسول الله، آمَنْتُ بربك العظيم،  
 وآمَنْتُ أَنَّكَ الرسول الأمين، وُلِدْتَ يتيماً يا سيدي يا أحبَّ خلقه إليه، لكنك  
 علَّمْتَ أهلَ الأرض حنان الوالدين، وكنْتَ يا سيدي فقيراً، ولو دعوت ربَّكَ  
 ليُحيلَ الجبلَ ذهباً لاستجاب، ولكنك قلتَ: إِنَّ الدنيا كشجرة، استراح مسافر  
 قليلاً تحتها ثم تابع سفره، وحين هيأتُ لك زوجك الطاهرة فراشاً فيه نعومة  
 قلتَ: أفلا تريدان أن أقوم الليل؟ كنتَ تسألُ أهلَ بيتك: أهنالك ما آكل؟ فَإِنْ  
 قيل لا، قلتَ: اللهم إني صائم.

لقد ملأت الدنيا نوراً، وأشعنت الحقَّ في أصقاع الأرض، بلَغْتَ الرسالة،  
 وأديت الأمانة، ونصحت الأمة، كلُّ ما كنتَ عليه يشهد أنك نبيُّ الله، وكلُّ ما  
 بدرَ منك يشهد أنك رسوله الأمين. هذه المعاني الإيمانية النبيلة، جادت بها  
 قريحة شاعرنا المسلم، فوجدنا قلبه يناجي الرسول المصطفى الحبيب ليقول:

يا يتيماً علِّم الدنيا حنان الأبوين  
 وفقيراً علِّم الناس سخاء الراحتين  
 قد غمرت الكون نوراً يتحدى الفرقدين  
 وملأت الأرض بالعدل فعم الخافقين  
 حين ساويت بلائاً بعليٍّ أخوين  
 وحطمت الكفر والذلَّ فدكاً صنمين<sup>(٢)</sup>

بهذا النَّفسِ الايماني الحازم الجازم، أثنى شاعرنا على الرسول عليه

(١) ص ١٥٧.

(٢) ص ١٦٣.

الصلاة والسلام، فأجاد، وهو عدا عن الاجادة، نضح بما في وعائه، وأفصحَ  
عمّا اعتمَلَ في داخله، فكانت بديعته شقيقة لبديعيات حفظها أدبنا كثيرة، منها  
للبوصيري، وابن حجة الحموي وغيرهما، وبهذا يكون قد شادِ علماً باقياً يُنتفع  
به، باقياً بعد رزية عظمى أعظمُ منها الغفلة عنها، وقلة التفكير فيها، فلم يشغل  
عمَّن يطلبه ولا يشغلُ عنه، ولم ينس مَنْ لا ينساه، فليتفكّر أولو الألباب، معشر  
الشيبة والشباب .

## دمعٌ لا كالدمع ، وبكاءٌ لا كالبيكاء

ودموعُ شاعرنا ليست كدموع تماسيح الأدب، الذين ملأوا أديبهم أنيناً وشكوى، وأراقوا ماء الوجوه، طلباً لوصال حبيب مخلوق، زعموا أنهم قضاوا ليلهم ساهرين، ونصفُ أعمارهم نوم، زعموا أن البعاد أنحلهم، وبطونهم الكبيرة تشهد أنهم كاذبون، زعموا أن السقم هدَّهم، وحقيقة أمرهم غير هذا كله، عقولٌ معطَّلة، قلوبٌ لا تفقه، آذان لا تسمع، وكبرٌ مقتاً عند الله أن يقولوا ما لا يفعلون.

شاعرنا ليس أمره كأولئك، لشاعرنا دموع، ولكنها شاهدةٌ قطراتها على عزمِ إيمان، وصدقِ عقيدة، ومضاءٍ عزيمة، هي دموع تشهد بالإباء، إباء الضيم والهوان الذي تفاخر به قوم من حيث لا يدرون، هي دموع فيها حرارة تشهد لصاحبها بإنسانية، إنسانية حُرمتها كثيرون وهم لا يعلمون، هو إنسان، ولكن هدَّبتُه عقيدة، وأدَّبه إسلام، وشحذ هممه إيمان، هي دموع تجاوبت مع قوله عليه السلام: «لو عرفتم ما أعرف لبيكنم كثيراً ولضحكتنم قليلاً»، هي دموعُ عارفٍ، وما أقلُّ العارفين في زمنٍ يزعم أهله أنهم أهلُ علمٍ وأهلُ معرفة. هي دموعُ رجولة، كما كان حالُ دموعِ عمر، كان رجلُ الرجال، ولكن، كم كانت دموعُه غزيرة في مواقف رحمة، هي دموع تسيير على خطا سيد البشرية عليه السلام، وما أكثر ما كانت دموعُه عليه السلام تبلى لحيته الطاهرة، هي دموع يقتفي فيها أثر نبي الرحمة، كان إذا سمع قوله تعالى: ﴿فكيف إذا جئنا على كلِّ أمةٍ بشهيدٍ، وجئنا بك على هؤلاء شهيداً﴾<sup>(١)</sup> بكى وبكى وبكى، فأبكى وأبكى صحابته من حوله، وما أسرع أن يبكوا كلُّما رأوه بكى.

نعم، دموعه شاعرنا ليست رغبةً في وصال بشرٍ، لا يُقيم ربُّنا له يوم القيامة وزناً، ليست دموعه في سبيل متاع رخيص، فهو القائل:

إنما يعشقُ المتاعُ غرير

يستحثُّ الخطا لنيلِ سراب<sup>(٢)</sup>

(٢) ص ١٧٠.

(١) النساء ٤١.

هي دمة تمحو الذنوب، كما يطفىء الماء النار، وتُنيل صاحبها رضوانَ الله، وهل بعدَ رضوانِ الله سعادة؟!، فهي سعادةٌ قطرةٌ منها تُعَدُّ كلُّ بحورِ سعادَاتِ الغافلين:

دَمْعَةُ الْوَجْدِ ثَرَّةُ التَّسْكَابِ

كَلَّمَا لَذتِ فِي حَمَى الْمَحْرَابِ  
قَدْ سَجَا اللَّيْلُ وَاسْتَبَدَّ حَنِينُ  
بِفؤَادِي وَذَابَ فِي أَعْصَابِي  
حَدَّثَنِي الْكُونُ عَنِ لَوَاعِجِ نَفْسِي  
وَأَطْيَلِي الْحَدِيثَ فِي وَصْفِ مَا بِي  
إِنْ سَأَلْتُمْ عَنِ شَوْقِنَا وَهَوَانَا  
كَانَ طَلُّ الْجَفْوُونِ بَعْضَ الْجَوَابِ  
لَيْسَ فِي الدَّمْعِ ذَلَّةٌ لِمَحَبِّ  
حِينَ يَهْمِي لَدَى فِسِيحِ الرَّحَابِ

فلقد هام في محبة الله، فكان الله ورسوله أحبَّ إليه ممَّا سواههما، فهجر كل متاعٍ أو لهوٍ رخيص، واهتدى بهدي كتاب الله:

أَنَا مَنْ هَمَّتْ فِي مَحَبَّةِ رَبِّي  
لَا تَلُومِي أَوْ تُكْثِرِي مِنْ عِتَابِي  
إِنْ هَجَرْتُ الْمَتَاعَ وَاللَّهُوَ عَمْرِي  
وَأَنْزَرْتُ الْحِجَا بِهَدْيِ الْكِتَابِ<sup>(١)</sup>

والعبد حين لا ينتسب لله، حين لا يكون من عباده الصالحين، حين لا يندرج ضمن مَنْ سَمَّاهُمْ رَبُّنَا تعالت أسماؤه باسم «عبادي»، حين يخرج عن دائرة «عباد الرحمن»، الذي أثنى سبحانه عليهم، فوصفهم بصفاتٍ معينة معروفة، فإنه لا بدُّ تائه في دياجير ظلمة جهلاء، وإن ظنَّ أنه في حضارةٍ وتحرر،

(٢) المكان السابق و ص ١٧١ .

وتخيّل لذاته سعادة يُحسّدُ عليها، أمّا إن كان من عباد الله القانتين، فسرعان ما نجده يغسل الخطيئة بدمع، تائباً نادماً آتياً، فيعود من «عباد الرحمن»، الذين يخشون للأدقان سُجّداً وبكياً، وإذا تُتلى عليهم آيات الرحمن زادتهم إيماناً، ويبدو - ولا أزكي على الله نفسي ولا شاعرنا - أن شاعرنا أحد هؤلاء، فوجدناه يقول:

يا ربُّ إني قد غسلتُ خطيئتي بالأدمع  
يا ربُّ يا تسبيحتي في مسجدي أو مهجعي  
يا ربُّ إني ضارع أفلا قبلتَ تضرّعي؟  
إن لم تكن لي في أساي فمن يكون إذن معي؟<sup>(١)</sup>

فما أن يقرأ قارئ أبياته هذه حتى يحسّ أن الشاعر غسل الإساءة، ومحا الذنب، وعفى على ما كان له من جرم، وأقلع، عمّا لا يرتضيه الرب، أو هناك مخلوق لا يخطيء أو يخطأ!<sup>(٢)</sup>، وكما يقول ابن أبي الصلت:

عبادك يخطأون وأنت ربُّ  
بكفّيك المنايا لا تموت

وهل من جوادٍ لا يعثر أو يكبو؟ هل من صارم لا ينبو؟ هل من عالم لا يهفو؟ ويبقى شاعرنا نابت العقل، راجع الحلم، رزين الرأي، خافض الجناح، يرى الناس يتكالبون على حطام الدنيا الزائل، يتطاحنون ابتغاء عَرْضِ هزيل، يتناحرون وراء متاع تافه، يتقاتلون على مراكز وألقاب، ولكنّ المكانة التي ظلّ يرجو غير ذلك:

وعيني كم جالتُ دموعَ حبيسةً  
بمقتلها ترجو انسكاباً فتمنع  
بذلتُ قصارى الجهد أرجو مكانةً  
لديك متى ياربُّ للنور أرجع؟

(٢) يخطأ غير يخطيء.

(١) ص ١٦٥.

صبرتُ وهل أقوى على الصبر بعدما  
غدوتُ كليلاً ليس في القوس منزعُ  
مُنَى القلب أن يحيا صفاءً مُجَنِّحاً  
لدى نورِكَ القُدسيِّ يسمو ويخشعُ<sup>(١)</sup>

أَلْفنا شعراءَ لذاتِ الأجساد، إذا سمعوا هديلاً حَمَام تذكروا حبيهم  
المفارق، إذا رأوا قمراً ذكَّروهم «بقرهم» الأدمي، إذا رأوا حتى حيوانين  
متحابين، تذكروا مَنْ «أضناهم» بعادته، إذا هبَّت رِيحُ الصبا حملتْ لهم معها  
رائحته، وإن هبَّت «ريحُ الشمال» أهاجتْ فيهم الحنين والشوق إلى الحبيب  
الأسير، أما شاعرُنَا، وقد مَلَكَ إيمانه عليه مشاعرهُ كُلُّها، وقاده إسلامُه لا هواه،  
فدموعُ شوقِه تتجهُ أتجاهاً مغايراً لاتجاهاتهم، لم تتجهُ أتجاهاً تقليدياً ممجوجاً  
كما أتجهوا، لم تنجذب نحو منزعٍ لا يزيدُ نصيبُ ابنِ آدمَ منه عن نصيب  
مخلوقاتِ الله الأخرى، دموعُ شوقِه غيرُ دموعِ أشواقهم، والذي حرَّكَ أشجانَه  
غيرُ ذاك الذي حرَّكَ أشجانهم، ووجهتهُ غيرُ وجهتهم، وضالتهُ التي يُنشد غيرُ  
ضالتهُم:

يا مسجد الخَيْفِ في الأقصى أحبُّنا  
وفي الخليل وفي حيفا وبيسان  
تهفو قلوبُهُم للزحف منطلقاً  
يحرِّرُ القدس من ظلمٍ وعدوان  
ورايةُ الحقِّ تعلو في مرابعنا  
تطهِّرُ القدس من رجسٍ وأوثان  
وتمسح العار من ساحات مسجدها  
وتغرس المجدَ فيها بالدم القاني  
لقد أُنرتَ دموعَ الشوقِ والهَفي  
يا مسجد الخَيْفِ مُذ حرَّكتَ أشجاني<sup>(٢)</sup>

(٢) ص ١٤٨ و ١٤٩.

(١) ص ١٧٨.

فالخيفُ حرَّك أشجانه، والخيف لم يُنسه قُدسَ الاسلام وأقصاه، وفي ذلك بيان للخطِّ وللمعدن، وفي ذلك دليل على كريم الخليقة والطبيعة، نبيل السجية والشيمة، دمثِ الجبلة، مهذبِ الشمائل، شريفِ الأخلاق، لطيفِ السليقة، وحلوِ الديدن. هذا إطراء وتقريظ لا أبغي فيه تزكية، فالله أعلم بي وبه مني ومنه، ولكن، كيف لا أقول هذا، ومناقبه لا يجحدها عاقل، ومفاخره لا أمل في حجبها، إلا كأملٍ في حجب عينِ شمسٍ بغربال.

أما مآثرُ أديه، فنجمة طلعت في سماء معان - المدينة الأردنية - فأنارت دروباً داكنةً في أردن الاسلام، وأمصار «لا إله إلا الله». وسأبقى أقول وأقول كما قال الله سبحانه: ﴿بل الله يزكي من يشاء﴾<sup>(١)</sup>.

---

(١) البقرة ٤٩.

## العزّة لله عزّة إيمان

وفي زمنٍ كثر فيه سجودٌ لطواغيت أرض، وفي زمنٍ سجّدنا فيه لدينار، في زمنٍ قلّ فيه مَنْ لم يسجد للميول والأهواء، وجَدْنَا نَفراً هَدَاهُ اللهُ، فَأَنَارَ لَهُ سَبِيلَ السَّلَامِ، وَكَانَ صَادِقاً حِينَ كَرَّرَ فِي افْتِتَاحِ صَلَوَاتِهِ كُلِّ يَوْمٍ خَمْسَ مَرَاتٍ: «وَجَّهْتُ وَجْهِي لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ، حَنِيفاً مُسْلِماً وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ، إِنَّ صَلَاتِي وَنَسْكَي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، لَا شَرِيكَ لَهُ، وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ، وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ»، مَا أَكْثَرَ مَنْ يَكْذِبُونَ فِي افْتِتَاحِ صَلَاتِهِمْ، وَأَمَامَ «اللَّهِ!!»، وَمَا أَشَدَّهُ غِبَاءً حِينَ يَكْذِبُونَ فِي «ابْتِدَاءِ!» الصَّلَاةِ، وَمَنْ عْبَادَ اللَّهِ الَّذِينَ أَدْرَكُوا هَذِهِ «الْكَذِبَةَ» الَّتِي شَاعَتْ فِي أَوْسَاطِ أُمَّةِ الْإِسْلَامِ، شَاعِرُنَا الْعَظِيمِ، فَهُوَ الْقَاتِلُ:

فَمَا لَنَا غَيْرَ هَتَافِ الْعَلَا

إِنَّا لَغَيْرِ اللَّهِ لَا نَسْجُدُ

فَاسْتَبَدَلْ كَثِيرُونَ مَنْ أَدْنَى بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ، اسْتَبَدَلْنَا عَزَّةَ قَوْمِيَّةَ غَرِيبِيَّةَ وَافِدَةَ بَعَزَّةَ الْإِيمَانِ، وَاسْتَبَدَلْنَا رِبَاطَ الدَّمِ بِرِبَاطِ الْعَقِيدَةِ، وَاسْتَبَدَلْنَا تَقْدِيسَ بَشَرٍ بِتَقْدِيسِ اللَّهِ، فَضَاعَتْ عَزَّتُنَا الَّتِي أَرَادَهَا لَنَا اللَّهُ، فَقَاسَيْنَا الْخُنُوعَ، وَاسْتَيْقَظْنَا مِنَ النَّوْمِ مَبْلَدِينَ، نَشْرَبُ حَلِيبَ الْهَوَانِ:

مَا كَانَ لِلْهَامَاتِ أَنْ تَنْحِنِي

لَوْ كَانَ فِينَا عَزَّةُ الْمُسْلِمِ<sup>(١)</sup>

دِينُنَا دِينَ عَزَّةَ، وَالْعَزَّةَ لِلَّهِ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ، وَالْعَزَّةَ لَا تُنَالُ بِغَيْرِ الْإِيمَانِ، وَلَا عَزَّةَ حَيْثُ لَا يَكُونُ إِيمَانٌ، وَالْعَزَّةَ لَا تُوزَعُ وَلَا تُوَهَّبُ كَيْفَمَا هَبَّ وَدَبَّ، فَلَقَدْ وَزَعْنَا الْعَزَّةَ كَمَا حَلَا لِمَيُولِنَا وَطَابَ لِأَهْوَانِنَا، وَوَزَعْنَا «الشَّهَادَةَ» مِثْلَهَا مِنْ قَبْلِ،

(١) ص ١٤.

(٢) ص ٢٠.

حتى لم نتورّع أن نعطئها لكافرين مشركين . أخذها جول ويطرس ، وطبئنا وزمرئنا ، وأقمئنا لهم أصناماً تذكارية ، كتبئنا عليها «الشهيد» فلان ، وأعطئ من لا يملك لمن لا يستحق ، كما فعل بلفور ، الذي مازلنا نعيبه ونشتمه يوماً في السنة ، وما أكثر «بلفوراتنا» العرب أو المسلمين ! العزة لا تُعطئ تبعاً لعصبيات بغيضة كما يفعل عربئنا - هداهم الله ، فتجرعئنا كؤوس الذل ، ولن يعصمنا غير عزة دين :

ويعصمئها من ذلة عز دينها

وليس لها غير الشريعة عاصم<sup>(١)</sup>

وتركنا الدين ، وأدرئنا للدين وللسنة الظهور ، وحنئنا الأمانة ، وأضعئنا الجهاد ، باحثين عن سلام مستسلم ، وعجزئنا ، أو تعاجزئنا ، عن فهم عزة علمئناها معلئ الأمة الناصح عليه السلام :

سلام عليك نبئ الهدئ

طهور الثرى عاطر الأعظم

حملئ الأمانة لا تنثنئ

ورويت بالنور قلب الظمئ

وجاهدئ في الله حق الجهاد

وقدئ السرايا ولم تحجم

وأيقظئنا من رقاد القرون

وعلمئنا عزة المسلم<sup>(٢)</sup>

وشاعرنا - لما أنعم الله عليه من سعة أفق - ، يسائل وهو عليم : أين راحت العزة التي كئنا بها يوماً نفاخر؟ فنسئمو على أمم أرض الله ، وماذا أصاب الأمة حتى تستكين؟ وماذا وراء هزيمئنا أمام المغضوب عليهم والضالين؟ ويقول :

فكانئ لنا الصافئات الجياد

نصول على الظالم المجرم

(١) ص ١٣٢ .

(٢) ص ١٥٥ .

وكانت لنا عزة المؤمنين  
نباهي بها هامة الأنجم  
فماذا دهانا لنرضى الهوان  
أناخ على القدس في ماتم؟  
يلوث بالرجس ساحاتها  
ويختال في ليلها المظلم<sup>(١)</sup>

ولكن شاعرنا لا يطول تسأوله، وسرعان ما يجد جواباً لتسائله:

رسول الهدى لو تبغنا خطاك  
وكنّا مع الله لم نُهزم

نعم، هجرنا خطا سيدنا عليه السلام، وحاربنا الله جهاراً فأذنتنا، وإلا، ألم يُخبرنا سبحانه بأن حقاً كان عليه نصر المؤمنين؟ ألم يعدنا بأن جند الله غالبون؟ حاربناه فخذلنا، نعم، وبألم في القلب لا يعلمه غير الذي خلق، أقول: حاربناه، وتباهينا في مهاجمته، فنحن «المنهزمون»، وتباهى علينا أردلون، وغلبنا منبوذون. وكنّا خير أمة أخرجت للناس، فحرفنا الكلم عن مواضعه، وأمرنا بمنكر، ونهينا عن معروف، وكفرنا بالله، ولم يبق لنا غير تشدق لا يفيد:

لو عرفنا الله ما شطت بنا  
سبل التضليل أو ذقنا الهوان  
غير أنا أمة قد أصبحت  
كل ما فيها . . . حديث ولسان!<sup>(٢)</sup>

فتجرعنا غصة، وكأس ضيم!، وأقمنا على ذل مر، وأطرقنا على مضض، غصصنا بالجرعة، وشرقنا بالريق، فلم نعد نجد طعاماً للحياة، فمع كل أكلة غصص، ومع كل شربة شرق، ولكن ظل ساقطون يظنوننا في سعادة، مطمئنين لبجوحة عيش، ناسين آية تهز أوصال الغافلين: ﴿فلما نسوا ما ذكروا به فتحنا عليهم أبواب كل شيء، حتى إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة فإذا هم

(١) المكان السابق.

(٢) (٢) ص ٢٦٦.

مبلسون، فُقطع دابرُ القوم الذين ظلموا، والحمد لله رب العالمين ﴿١﴾ نعم، نسوا، ولكنَّ الله بحكمته سبحانه لم يغلق عليهم الأبواب كما يتهيأ للساذجين، وإنما فتحها، وهو سبحانه لم يفتح عليهم أبواباً معينة دون أخرى، وإنما فتح عليهم أبواب «كل شيء»، أبواب كل المطالب الدنيا، ففرحوا بما أوتوا، ثم كانت غضبةُ الله سبحانه، وأخذهم «بغته»، فإذا هم متحيرون يائسون، واستؤصل القوم الذين ظلموا، ولم يبق منهم من أحد.

أدباؤنا مطالبون أن يأخذوا بأسباب عزَّة الأمة، فهم قادة فكرها، وهم طبقتها «الممتازة»، هم الطليعة والجحفل والخميس، وهم السرية والعمرم، أنعم الله عليهم بملكة، دون سواهم من خلق الله، ووهبهم قدرة فكرية فائقة، فرأوا ما لا يرى الانسان العادي، فنتظر منهم بعث الوعي في هذه الأمة علَّها تقف - وبصلاية وبعزم -، ونرجو أن يرشدوا الضالين والحائرين، وأن ينيروا سُبُلنا الحالكة، لتثب - كما وثبت من قبل -، فتزيل السبات، وتسترد الكرامة والعزَّة، وتستعيد الحمى من غاصبيه، وتُخرِّج الطواغيب العاتين من حيث أخرجونا، والأرضُ والعزَّةُ بغير السيوف لا يستعادان:

دعوةٌ	للفلاح	في انبثاق الصباح
ونداء	الكفاح	في الربى والبطح
عند زحف الجنود		
دعوةٌ	لللجهاد	في الربى والوهاد
بالسيوف	الحداد	تُسْتَرْدُ البلاد (٢)
نعم، نعم:		

بالسيوف الحداد تُسْتَرْدُ البلاد

بهذا وحده شمسُ العزة لا بدُّ ساطعة، وستبرُّز من حجابها، وستكشف الجلباب وتحسِرُ القناع، وبعدها ستجنحُ شمسُ الذلِّ، وسيجفلُ الليل، وسيَنقلقُ الفجر، ويلوحُ الخيطُ الأبيض، وسيتبسّم الصباح لنا قائلين: لا إله إلا الله، الحمد لله.

(٢) ص ٢٤٥.

(١) الأنعام ٤٤ و ٤٥.

## أخوة دين لا عصبية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾<sup>(١)</sup> ورباط الدين الرباط الذي لا تنفصم عراه، ويتحطّم أمامه كلُّ رباط، فد «إنّما المؤمنون أخوة»، والأخوات المصطنعة الهزيلة ما أسرع أن تتحطم!، وما أسرع ما تبدو فيها القواعد واهية واهنة!، وتستحي من نفسها، ولا تبقى صامدة غير أخوة الإيمان، تظلُّ قلعةً تريض في القلوب، وتظلُّ «لا إله إلا الله» جواز سفر يتحدى كلَّ حدود، وكلَّ قيود، تُحرِّك أوتار القلوب، وترقص لوقّعها أحيالُ الأفتدة، فيبقى المسلم للمسلم كبنيان مرصوص، يشدُّ بعضه بعضاً، ورغم شعارات القطيعة، وهتافات الضياع. وشاعرنا - كما بدا من شعره وأدبه - من هؤلاء، فحين قرأت قصيدته «مع العيد»<sup>(٢)</sup> التي يقول فيها:

العيدُ أقبَلُ والذكرى تُورِّقني

وليس في العيد غيرُ الحزن والسقم

ما عاد في مقلتي طيفٌ يداعيني

غيرُ الأحبة في «الأقصى» وفي «الحرم»

وغيرُ أمٍّ غَدَّتْ تشتاق والهفي

لهمسة الحبِّ والإلهام ملء فمي

وغير وجه أبٍ بالطهر مؤتلقٍ

لم تطفه عاديّات الشيب والهزم

وقلبٍ أختٍ جريح ذاب من كمدٍ

ينوح من شدّة التبريح والألم

وغير ثغرٍ رضيٍّ في ابتسامته

قد أصبح اليوم حزناً غير مبتسم

وصورةٍ لصغير ظلَّ يرقبني

متى أعودُ؟ وعين الطفل لم تنم

(٢) ص ٧٩.

(١) التوبة ٧١.

قرأتُ تقديماً ثرياً كتبه للقصيدة، بدأ التقديم قائلاً: «إلى طيف الحبيب  
ناجي...». وللوهلة الأولى ظننته يريد الشاعر المصري المعروف ابراهيم  
ناجي، فأصابني ذهول، وانتابني ما يشبه شعيرية، وبت أسائل نفسي: ماذا  
أصاب شاعرنا؟ وأين هو من ذلك؟ وهل يجامل شاعرنا صاحب «الأطلال» التي  
«أطربتنا!» بها عجوز التخدير، مغنية الضياع، أم كلثوم! هل نسي شاعرنا أبيات  
ذاك الفاجرة:

هل رأى الحب سكارى مثلنا  
كم بنينا من خيالٍ حولنا  
وضحكنا ضحك طفلين معاً  
وعدونا فسبقنا ظلنا  
وانتبهنا بعدما زال الرحيق  
وأفقنا ليت أنا لا نفيق  
يقظة طاحت بأحلام الكرى  
وتولّى الليل والليل صديق

التي ردها شباب المجون وفتيات الجهل. ولكن ذهولي أخذ يحتضر، بعد  
أن تابعت قراءة المقدمة، وقرأت قوله فيها «في سجنه الضيق في الوطن المحتل  
والأرض الطهور... إليه وقد صبر صبر الرجال، وثبت ثبات الأبطال» أدركت  
بعدها أن «ناجيه» غير «ناجيهم»، وعادت لي عافيتي، وعدت أتلذذ بقراءة أبياته  
بعين قلبي:

ناجي يناجي قلوباً بالهدى عمّرت  
القيد يقات من زندي ومن قلمي  
من لي بأجنحة رفّت على فنن  
تجود باللحن والتغريد والنغم  
تحوم اليوم في الأقصى وصخرته  
تنن وأسفا مقطوعة الرحم

إِنْ أَطْرَبَ الْعُودُ آذَانًا وَأَفْتَدَةً

فَأُذِنَهُ عَنِ سَوَى «التكبير» فِي صَمَمٍ

أيقنتُ بعدها أنه أخٌ له في الله، وأدركتُ أنّ شاعرنا «طلّوق» النفاق والتلون، فليس ناجي هذا زعيماً يتقي شاعرنا شرّه، بل هو أخوه، وهو ليس أخاً في قومية ابتدعتها، أو عنصرية زعمناها، وإنما هو أخ في عقيدة، رفيق ذرب، وكيف لا يكون بينهما أخوة، وناجي هذا لم يتخذ قومية أو عنصرية إلهاً من دون الله، ولم يستبدل حبات تراب بدينه أو عقيدته، فوجدناه يقول فيه:

قَدْ هَامَ قَلْبُكَ بِالْقُرْآنِ مَنْطَلِقاً

وَهَامَ غَيْرُكَ بِالطَّاغُوتِ وَالصَّنَمِ

ولعلّ قارئ الأبيات يحسّ ما اعتمل في نفس صاحبها من إحساس مرهف متقد، وشعور متوثّب، وانفعال حيّ، ليخرج بعدها قائلاً في نفسه: ما أصدق الشعر حين يعبر عن خلجات النفس!، ما أجمله حين يصوّر الشعور!، وما أسهل أن يدخل شعراً القلوب القلوب!، وما أحرى شعر اللسان أن ترذّه طبلاّت الأذان!، ما أجمل قول شاعرنا «ناجي يناجي قلوباً»، والقيد «يقتات» من الزند والقدم، وصخرة الأقصى «مقطوعة الرحم»، وأذنه عن سوى التكبير «في صمم»، فلا يحرّره غير «الله أكبر».

رباط الأخوة الإيمانية أساسه الايمان، والتحابّ في الله يستلزم صبراً لحكمه، وعدم ارتجاء غيره:

ناجي فديتك يا أغلى أحبّتنا

لا ترتجي غير ما في «النون والقلم»

فاصبر لحكم إله ليس يظلمنا

في ساجه أعطيات الجود والكرم

وأنتي للمؤمن أن يتواكل ولا يتوكل، أنتي له أن ييأس من روح الله، أنتي له أن يتغافل عن أوامر الله: «وأعدّوا» و«قاتلوا» و«أخرجوهم»:

غداً زحوف الهدى تمضي بلا وجل  
تجنساح خصمك بالنيران والحمم  
تطهر الأرض من أعداء أمتنا  
وتزرع الأمن في «يافا» وفي «العجمي»

هذه الأخوة ذاتها دفعت بشاعرنا أن يوجه «تحية للجزائر»<sup>(١)</sup>:

لا تعجبين إذا اشتد الحنين لهم  
فالأهل أهلي والإخوان إخواني  
جزائر المجد والإيمان معذرة  
إن كنت قصرت في شعري وتباني  
فشعبك الحر فوق الشعر موضعه  
قد شاد صرح المعالي بالدم القاني  
بالأمس سطر للدنيا بطولته  
وزلزل البغي والباغي بايمان  
واليوم يكتب للدنيا حضارته  
لا يرتضي غير «توحيد قرآن»

فأهل الجزائر أهل له، وإخوان في العقيدة، والجزائر «جزائر ايمان»،  
وشعبها لم يشد صرح معاليه بسلام ذل، وإنما شاده «بالدم القاني»، وشعبها لم  
يُزلزل بغيًا أو باغيًا «بقومية أو عنصرية»، وإنما هو زلزلته «بايمان»، فهو اليوم «لا  
يرتضي غير توحيد وقرآن». كل هذا أوجد بين شاعرنا وبين الجزائريين أخوة  
ايمان حقة، لا تنفصم عراها على مر الأيام، وكر الدهور.

هذه الأخوة حدثت بشاعرنا أن يشي على إخوان له في سلطنة عُمان، ذلك  
أنهم:

(١) ص ١١٦.

يُعادون الله الطغاة ليرعوا  
وما هادنوا علجاً ولا الكفرَ سالموا  
قلوب الهدى والبرِّ كانت عروشهم  
وتيجانهم فوق الرؤوس العمائم  
وفي أرض عَمَّان الأبيَّة إخوة  
لكم يا أباة الضيم صيد أكارمُ  
يحبُّونكم في الله والحق والهدى  
وحبُّ لغير الله والحق آثمُ  
يوحِّدنا القرآنُ إن فرَّق النوى  
ويجمعنا في البرِّ والجود هاشم<sup>(١)</sup>

فهم إنما يعادون الطغاة «الله»، وهم «لم يهادنوا علجاً»، «ولا الكفر سالموا»، أمَّا عروشهم فكانت «قلوب الهدى والبرِّ»، وأمَّا تيجانهم فهي «العمائم»، وإخوتهم في عمَّان - العاصمة الأردنية الحبيبة - يحبُّونهم «في الله»، فكلُّ حبِّ لغير الله «آثم». ولعلَّ سائلاً يسأل: وما الذي يجمع بين عمَّان وعمَّان؟ ولن يطول التساؤل حتى يجد قول الشاعر: «يوحِّدنا القرآنُ إن فرَّق النوى». الله الله ما أصدقه من تعبير!!، وهل غير القرآن يجمع أو يوحد!!، القرآن القرآن، الذي جعل متقاتلين متناحرين بنعمته إخواناً متحابين، القرآن الذي ما أن يسمع مسلمٌ مسلماً روسياً كان أم تركياً أم أفغانياً أم فلبينياً يردد آياته حتى تنفتح أمامه كلُّ نوافذ القلوب، ويودُّ لو احتضنته رموشُ العيون.

الحب الصحيح المتين النقي لا يكون إلا في الله، وإلا كان «ضحكاً على الذقون»، وكان «قشوراً» سرعان ما تموت، وكان مُتعباً آتيةً كسراب خادع أو كفقاعات ماء، الحب الحب لا يكون إلا في الله، بذلك وحده نضمن رضا الله، وبذلك وحده نكفل أن نكون من الذين يظلمهم الله بظلمة يوم لا ظلَّ إلا ظله.

ما من عاقلٍ ينظر إلى الأمور بعين العقل إلا ويرى أن الحب الذي قام على

(١) ص ١٢٩ وما بعدها.

غير رباط العقيدة رباطه وإه، وركنه مهترىء، وسرعان ما يتحول إلى الضد، لأنه إنما بُني على «مصلحة» و«انتفاع»، بخلاف حبّ القلب قام على أساس دين، تزول جبال ولا يزول، نرى مسلماً من تلمسان، وآخر من عيسان، على سبيل المثال لا الحصر، لم يلتقيا البتّة، لم تجمعهما منفعة دنيوية، لم يربطهما رباط دم، لم يجمعهما بيت، ولم يظّلّهما سقف، وهما مع ذلك كلّهُ قريبان نسيبان، جمعهما رباطُ دين لا تنفصم عُراه، هما فرّعا نبعة إسلام، غُصّنا دوحه ايمان، هما رضيعا لبان عقيدة، أخوا صفاء، وسليلا وفاء، وأليفاً وُدّ، وإنّ أعلن غير ذلك مغرضون، ونشر خلافه فارغون، وجادل بما لا يعلم جاهلون، سيبقى الرباط الديني راسخاً وإنّ بُعدت الديار، وشسّعت المنازل، ونأتّ الربوع، وعزب المقام، وسيبقى «التوحيد» ملءً أسمعِ القلوب، وأبصار العقول.

## لا يأس ولا قنوط

وهل مِنْ حَيٍّ على وجه الأرض لا يرى حوادث مريرة منغصة ولدتها ليالٍ  
حُبالي سود!!، هل من قارئ لا يرى سفيتنا الأدبية قادها ربانته تائهون!، هل  
مِنْ متذوق أدب لا يرى أَمْرنا الأدبي أسند إلى غير أهله! فشرعوا لنا في أدبهم  
ما لم يأذن به الله، فحللوا وحرّموا، وكما ترغب الأهواء، راغبين عن الهدى رغبةً  
في الهوى، فشاعت في آداب أمتنا موبقات! لهوا وألهوا، فهل اطمأنت جنوب  
القارئين في مضاجعهم؟ وهل أشبعت دنائير الهوى بطونَ جاعين؟ أملاهيـنا  
وحفلاتنا ورقصاتنا، استمرت حتى الصباح مع «المع» «النجوم» وأشهر  
«الفنانين» الكاسين منهم والعارين، سرّت المغموين المحرومين  
المحزونين؟؟؟ أسئلة كثيرة تجول في الذهن، إجاباتها جاهزة، لا يجهلها ذو  
لب، أو ذو بصيرة، هذا كلُّه جعل واهن الإيمان، سقيم العقيدة، زائغ القلب،  
يظنُّ أن الخير مات، وأنَّ البغي السيد السائد، أما الأديب المؤمن، فذلك كلُّه  
لا يثني عزم مضائه، وهو مؤمن أن الله أكبر وأكبر:

والبغيُّ مهما طال عدوانه

فالله من عدوانه أكبر<sup>(١)</sup>

وأنَّ «كتائب الايمان» سيفها مشرع:

كتائبُ الايمان قد بايعت

لا فاسق فيها ولا مترف<sup>(٢)</sup>

وملاحظ كثيراً أن شاعرنا دائمٌ على هزِّ القلوب الغافلة، جرف أصحابها  
تيارُ الحاد، أو مغرياتُ مادة غريبة زاحفة، فتأهوا في ظلمات حالكة، وظنوا أن  
سداً لا يُجتاز أقيم بينهم وبين ربهم، ونسوا أنه سبحانه قريب من عباده الذين  
أسرفوا، فوجدنا الشاعر يخاطب أمثالهم فيقول:

(٢) ص ١٨.

(١) ص ١٢.

لا تقنطوا من رحمة  
الرحمن أو مرضاته  
فالحلم والغفران  
والرضوان بعض صفاته  
لا تمتروا في ذاته  
فالروحُ من آياته  
والصدرُ في أنفاسه  
والقلبُ في خفقاته<sup>(١)</sup>

وهو يرى أن المتع كثيرة في دنيانا، منها ما يتساوى فيه المرء مع مخلوقات  
الله الأخرى، فيتمتع ويأكل كما تأكل، أمّا مُتَع المؤمن فشانُ آخر، هي باطمئنان  
القلوب لرضوان الله، هي بشهادتين لا يلج جنّة الله إلا بهما، هي بصلاة تريح  
النفس كما قال عليه السلام لبلال، وهي بركاة تزكّي النفس، وهي بصوم يهدّب  
ويربّي النفس على طاعة الله، وهي بحجّ مبرور يمحو كلّ الذنوب، فوجدنا  
الشاعر يقول:

والشغْرُ في تسبيحه  
والشغْر في سماته  
والصوم في رمضان  
والحج في ميقاته  
والمؤمن البرُّ الكريم  
مصدّقاً بركاته  
والصالح العفُّ التقيُّ  
يهيم في صلواته  
يرجو الرضى من ربّه  
ليُقيم في جنّاته<sup>(٢)</sup>

(١) ص ١٣٨.

(٢) المكان السابق.

وأما مَنْ ران على قلبه ما كان يكسب، أما مَنْ عمي بصره وبصيرته، أما مَنْ رأى الشر خيراً والخير شراً، أما مَنْ رافق شيطاناً، وهو يظن نفسه أحسن صنعاً، فتراه يختال وكأنه ناجٍ من يوم تذهل فيه كلُّ مرضعةٍ عما أرضعت، وتضع كلُّ ذات حملٍ حملها، فتري الناس سكارى وما هم بسكارى، ويفرُّ المرء يومها من أخيه، وأمه وأبيه، لكلِّ امرئٍ منهم يومئذ شأن يغنيه، فلا ملجأ يومها ولا منجى من الله إلا إلى الله، وشاعرنا يقول في أمثال هؤلاء الصمِّ البكم العمي:

والفاجرُ الغرُّ الجهول

يتيه في نزواته

لا يستقيم ولا يسير

على طريق هداته

ولكن، إن أُغْلِقَتْ أبوابُ الناس، فهيهات هيهات لبابِ الله أن يُغلق، ولكن جنات الله حُفَّت بالمكارة:

لكنني مؤمن بالله أن له

باباً إليه قلوب الخلق تنطلق

إن أغلقَ الناس بابَ الودِّ وانصرفوا

فعند ربك بابٌ ليس ينغلق

وإن توَعَّرَ دربي في مسالكة

فعند ربِّك من فيض الهدى طرق<sup>(١)</sup>

فزمنا طغَّت فيه على السطح أشباهُ قروء، وهو زمن تكالبت فيه على بني الإسلام أممُ إلحاد أو فساد، وهو زمن صدق فيه قول ابن الرومي:

كمثل البحر يغرقُ فيه حيٌّ

ولا ينفكُ تطفو فيه جيفة

(١) ص ١٧٥.

أو الميزان يُخفضُ كلَّ وافٍ  
ويرفع كلَّ ذي زنة خفيفة

هو زمنٌ حُرِمَتْ فيه قلوبٌ عمي من سعادة، وضاقَت الأنفس، وصِرْنَا نرى  
وجوهاً كالحة عليها ابتسامات مريضة، تُخفي وراءها الأضغان والأحقاد،  
ويعيش المؤمن في جوِّ هذا حاله في صراع، قلبه يحترق وهو يرى بني دينه في  
ضباع، تختفي بينهم مسرات حقّة، وتنتصر ظاهراً شهوات دنيا:

ضاقَت بي النفس حتى كِدْتُ أختنق  
واجتاح زورق عمري الموج والغرق  
ولفّني الصمت حتى كاد يسحقني  
كأنني لوجيب القلب أسترقُ  
ومزّق الشك نفسي واستبدَّ بها  
فلست أدري بمن أرضى ومن أثقُ  
والنفس في كَدْرٍ ممّا ألمَّ بها  
والقلب من شدّة الأهوال يحترق  
وأقربُ الناس عن جهلٍ يضيّعني  
وقلبي قد صخرأ ليس ينفلق  
والجوُّ حولي لا عطر ولا عبقُ  
وطأ ما لفّ قلبي جوّه العبقُ  
وأظلم الكون من حولي فوا حزني  
قد لفّ كلَّ حياتي الليل والغسق<sup>(١)</sup>

والمؤمن مطمئن دائماً، انه لن يغيب عن عين الله، أو عن سمعه لحظة،  
فرئُه عليم بخائنة الأعين وما تخفي الصدور، قريبٌ من جبل وريده، عليم بما  
توسوس به النفس، سميعٌ لدبيب نملة سوداء، على صخرة صماء، وفي ليلة  
ظلماء، ومن هذا الايمان الراسخ الذي يتمتع به المؤمن، وجدنا شاعرنا يقول:

(١) ص ١٧٤ وما بعدها.

أدعوك جهراً أم أناجيك خُفيةً

وأنت لزحف «الظل» و«النمل» تسمع<sup>(١)</sup>

والمؤمن يحرص أن يكون له قلب به يفقه ويعقل ويبصر، طاهر، واجف، مطمئن بذكر الله، وفيه سكينه، فلا يطبع الله عليه، وليس عليه قفله، يخاف يوماً تتقلب فيه القلوب، وانطلاقاً من هذا الايمان الصامد صمود جبال السلط وقمم عجلون، وجدنا الشاعر يناجي خالقه سبحانه فيقول:

فؤادي في كفِّيك ليس يناله

سواك فمن للقلب إلاك مرجع<sup>(٢)</sup>

وتحقق نصر الله للمؤمنين لا مرأه فيه، على أن نكون «عباد الله» بحق، وعلى أن يكون سلاحنا في أيدي متوضئة أمينة:

ذاك سرُّ الفوز الذي نرتجيه

وهو مفتاح نصرنا في «القضية»

ما يفيد السلاح في غير تقوى

والسليالي عريضة خمريه

يا شهيد الجنان طبت مُقاماً

وتمتعت بالحياة الرضية<sup>(٣)</sup>

وعلى أن يسبق ذلك كله إعداد:

يا أمةً باعت هداها وما

عادت بغير الغث من كافر

لا ترتضي أمجاد أمس مضت

وما لها في المجد من حاضر

صُدت عن الايمان فاستسلمت

تسجد للأفك والساحر

(٣) ص ٣٦.

(٢) المكان السابق.

(١) ص ١٧٧.

من يرتجي نصراً بلا عُدَّةٍ

فما له يا قومٌ من ناصر! (١)

بذلك وحده نصنع «بدرًا» جديدة في «قدس» الاسلام، تقابل بدرًا الأولى العظيمة التي صُوِّرَتْ أحداثُها «الأنفال»:

يا سورة الأنفال مَنْ لي بها

قدسيَّة الآيات تستنفر! (٢)

بهذا وحده نفرِّق بين الحق والباطل، ونطهِّر الأرض، ونصون الكرامة، ونحمي الأعراض.

إنَّ المتصفِّحَ لديوان شاعرنا، يحسُّ أنَّ هتاف «الله أكبر» امتزج بدمه، هذا الهتاف الذي عطَّله أذعبياء الاستسلام، وتجارُّ الخنوع، فلم يعد يثير فيهم حماساً ولا عاطفة، فيسمعونه ولا يرتدعون، أمَّا قلبه فامتلاً أسىً وألماً، وكيف لا، والقدس كانت بالأمس نقية طاهرة، فإذا بوجوه كالحية تطلُّ:

يا قدسُ يا محرابُ يا مسجداً

يا درَّةَ الأكوانِ يا فرقدُ

سفوحك الخضرُ ربوعُ المني

وتُرُّبكِ الياقوتِ والعسجدُ

أقدامُ عيسى باركتْ أرضها

وفي سماها قد سرى أحمدُ

أبعَدَ وجهِ مُشرقٍ بالتُّقى

يُطلُّ وجهُ كالح أسودُ (٣)

لقد شُغِفَ شاعرنا بالجهاد حبًّا، فهام إعجاباً بالمجاهد الحق:

بارك الله في الجهاد خطاه

حين لبى الفداء لما دعاه

(١) ص ١٠٤.

(٢) ص ١٢.

(٣) ص ١٣.

طاهر القلب والضميرُ تقيُّ  
صادق العهدُ بالذمما يرعاه  
حملت راحتاه ناراً ونوراً  
وبه المؤمنون باهوا وتاهوا  
فإذا أقبل «الزمان» تواري  
وإذا زاغت العيونُ تراه  
لو لغير الإله ذلت جباهُ  
لأنحنت عند راحتيه الجباهُ<sup>(١)</sup>

ووجدناه يتساءل: أين ذهب أبطال سَطروا ببطولتهم صفحات مجد خالد،  
فكتبوا لتاريخنا الاسلامي صفحات مشرقة لا تُجحد ولا تُؤارى:

أين سعدٌ وخالدٌ والمثنى  
كلهم بالدماء ينصر دينه  
والسرايا يقودها ابنُ زيادٍ  
ركب البحر لا يهاب سفينه  
وصلاح كغرة الصبح يرجو  
أن تُعيدوا وتبعثوا حطينه<sup>(٢)</sup>

فيقطع على نفسه عهداً بأن يقتفي أثر أولئك الأعلام، فالأمهات ما زالت  
تلد، ولدينا أحفاداً آمنوا، سائرون على خطا الأكارم الأجداد:

أيها المسجد الجريح سلام  
لك عهدٌ على المدى لن نخونه  
إن علّت راية الرسول ودوت  
دعوة الله وهي فينا سجينة  
أن تسيل الدماء حتى تُروِّي  
صخرة القدس والقباب الحزينة<sup>(٣)</sup>

(١) ص ٥٨ و ٥٩.

(٢) ص ٥٥.

(٣) ص ٥٥ و ٥٦.

إي والله، «دعوة الله فينا سجيئة»، ولكنها لا بد منطلقاً يوماً ومدوية، والمسلم لا يرضى ياساً، ولا ينام على ضيم، ويأبى القنوط كله، وعندنا رجال اقتفوا آثار قائدهم العظيم عليه الصلاة والسلام، وهم لا بد محققون ما سَعَوْا مِنْ أَجَلِهِ، وهم لا بد منتصرون.

ومثل هذا الأدب الاسلامي الذي يبعث على الأمل نريد، أما أدباء الشؤم والسواد، الذين اقتفوا آثار شذاذ فرنسا أو بريطانيا أو غيرها، والذين جعلوا أدبنا العربي نَحْساً من النحوس، حتى غدا أشأم من البسوس والبارح، ونسوا سماحة الاسلام وُسْرَهُ، نسوا أن جباه المؤمنين لا تدل، وعزّة الاسلام تأبى أن تستكين، نسوا أن القنوط ليس من شيم الايمان، ولا من مزايا الكرام، نسوا أن الأديب المسلم مبارك الصحة، ميمون الطائر والطلع، سعيد الجد، مسلماً وجهه كله لله رب العالمين، الذي خلق ورزق وقسم وقدر، مؤمناً بأنه لا يصيبه غير ما كتب له أو عليه، ومع هذا كله، مع هذا «التمرد» الذي وجدنا نقرأ من أدبائنا عليه، لن نتردد أن نقول: لا يزال في أدبنا خير، ولكن، لا غنى لمن رغب الحصول على لآله ودرره أن يستجلي أسراره، ويستكشف مكامنه، عندها، هو واجد أدباء أبدعوا أدباً حياً جميلاً مؤثراً مشرفاً لا محالة، وهو واجد لا بد أساطين بلغاء طرقت أبواب قلوب اليائسين من أدبائنا وقارئ أدبنا ليقولوا لهم: ما زال في أدبنا خير، ما زال في الدنيا خير، وأمة محمد عليه السلام فيها خير، وستبقى كذلك حتى يرث الله سبحانه أرضه وخلقه.

## لا يمين ولا يسار، بل اسلام

بسم الله الرحمن الرحيم: ﴿وَإِنْ تَطَّعْ أَكْثَرَ مَنْ فِي الْأَرْضِ يَضْلُوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ، إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ، وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾، ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا لَيُضِلُّونَ بِأَهْوَاهِهِمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾<sup>(١)</sup>.

ولقد مضى ما يقارب القرن من الزمان، والغربُ يغتصبُ عقولَ الأدباء والمفكرين، فنشروا الشك والإلحاد، وآمنوا بالفلسفات الجديدة الاقتصادية والسياسية، وهم راكنون إلى ما لأولئك من «تراث»، و«مضربون» عن الانتاج الجديد الصالح، ومُعْرِضون عن محاسبتها ونقدها أو تشريحها، حتى فوجئنا بزعة عالمة الاسلامي في ايمانه وعقيدته، وانتشرت فينا علمانية، وهتفتنا متحمسين لشعارات بوفاء، لا تقود لغير الهلاك.

كثيرٌ من أدبائنا «تفرنج»، وصار افرنجياً أكثر من الافرنج أنفسهم، وشغفتهم حباً فلسفات غربية، أو جحود شرقي، حتى بداءات الغرب والشرق عشقوها، فزودونا بأدب ليس فيه أدب، وطلعوا علينا بنتاج كُله خرافات وضلالات وسفاهات، وحتى مضحكات مبكيات، ركنوا إلى فساد غربي، وتفشخ شرقي، واستسلموا «لأبظالهما»، فقادوا الفارغين من شبابنا إلى الهاوية، هذا نفر من أدبائنا ميؤس منه، لا يرتدع ولو ضربت رأسه «بحجارة من سجيل».

لقد وجدناه يقلد دعوات أدباء الغرب وعلمائه، في دعوة المرأة إلى أخذ حريتها من «عدوها!» أخيها، أو زوجها، أو أبيها، فإذا بنسائنا يصبحن متعة للرجال، مستقرراً لشهواتهم، يخادعونهم في الخلوات، وأركان الجامعات المظلمة، وتحت ظلال الأشجار النائية، ويجلسون معهن في البارات والفنادق ذوات النجوم الخمسة، يراقصونهن في الحلبات، ويسبحون معهن في مسابح الهيلتون والشيراتون وماريوت، والهوليدي إن، وبالاس، وعلى شواطئ الأنهار، وثنيات البحار والخلجان «الثائرة!!»، كل ذلك دون ارتباط بحياة زوجية

(١) الأنعام ١١٦ و ١١٩.

وسكون عائلي ، واكتشفت نساؤنا بعد تجارب مريرة وأيام عصيبة ، أنهنَّ غَدُونٌ وروداً ذابلة داستها المادة ، فشكت وصرخت ولا معتصم ، وبكت وندمت ولات ساعة مندم ، ولم يهتمَّ بمأساتها إلا مسلم قطر دماً قلبه ، إلا من اهتمَّ بأمر أمة الاسلام ، وإلا من ظلَّ في قلبه بقية إحساسٍ أو غيرةٍ أو حياء .

. . . وانهارت سعادة بيوت ، وضاعت أمومة حانية ، ولكن ظلَّ ساقطون عبر شاشات صغيرة وكبيرة ينادون : تحيا حرية المرأة !! ، وليعيش الحب !! ، ظلوا يدافعون عن اباحية الرومان وقدماء اليونان وفارس ، فشغلنا عن العمل والانتاج ، والحياة الجادة ، ظلوا يباركون نظريات الجنس الفرويدية اليهودية ، ظلوا ينادون بمساواة الرجل بالمرأة كما فعل الوجوديون السارتريون ، والشيوعيون الذين أحيوا مذهب القرامطة ، الذي دعا إلى حرية مطلقة في الأموال والنساء ، وظلوا يصرون أن يبدأوا من حيث انتهى «السادة» الشرقيون أو الغربيون ، وظلوا يُحيون دعوة أبيقور الذي دعا إلى الاستمتاع واللذة ، حتى رأى حديقته تغصُّ برجال ونساء ، وطبقَ فكرته في صورة حيوانية ، فعدل أبيقور عن فكرته ، لكن الأبيقورية ظلَّت عنواناً على الاستمتاع الذي لا يليق بكرامة الانسان .

نريد من أدباء أمة الاسلام أن يقفوا عند حدود النظام الاجتماعي والاخلاقي في الاسلام ، نريد أن يُعتَبَر أدباؤنا أدياء التحرر ، رؤاد الشك ، تجار الخمر ، بتجارب أمم الرذيلة ، فهل شعراء أمة الاسلام فاعلون؟ هل كتابنا مستيقظون ملتزمون؟ هل فنانونا مرتدعون؟؟ وأسأل ربي مخلصاً أن يهدي صفوة «مفكرينا» و«علمائنا» سواء السبيل ، فكثير منهم تائه ولا يدري . حزني وأنا أرى أدباء أمة الاسلام ينخدعون بقشور التمذُن حُزُنٌ مَنْ ذُبِحَ واحداً في حجرها!! ، لم يعد الحقُ معمولاً به ، وأصبح باطلنا لا يُتناهى عنه ، وصار الموت سعادة ، وبطنُ الأرض خيراً من ظهرها ، والحياة مع الظالمين الفاسدين المفسدين جرماً .

نعم ، انساق كثير من أدبائنا وراء سبالقة المعضوب عليهم والضالين ، وتظاهروا بالغيرة على «تقدم» أدبنا و«تحرره» ، لكنهم أضَمَرُوا في القلوب فحيح أفاع ، ومكرَّ تعالب ، ومسكنة تماسيح ، بعد أن طاف شرقيون وغربيون عالمنا الإسلامي ، مشرقه ومغربه ، زارعين فيه الفتن ، حتى باصت وفرخت . وجدنا أدباء

مسلمين لم ينشروا من الأدب إلا الغث الممجوج، عافته النفوس الزكية والطباع السوية، باعوا ضمائرهم رخيصة، ومجدوا أدباً قام على التشكيك بالقيم، والغمز واللمز بالمبادئ والمعتقدات، فنشروا آداباً بلا آداب، هي في نظر المخدوعين شهد سائغ، ولكنها في نظر الأذكياء الأسوياء الأتقياء حميم يقطع الأمعاء، ولشرب زيت خروع ألد وأشهى لو كانوا يفقهون.

بعض «التغربيين» من أدبائنا غربي أكثر من الغربيين، ومن «التشريقيين» كذلك نفر شرقي أكثر من الشرقيين، تراه يتلمذ عليهم في مناحي حياته كلها، في آرائه، وفي أفهامه، حتى في طرائق تفكيره، بل حتى في جسمه ولبسه، فهو يُطلقُ شعرَ رأسه وشعر لحيته الافرنجية، يهملها من غير رعاية أو تسريح أو تشذيب، ويلبس بنطال «الجينز» كرعاة البقر، حتى لسانه، نصف عربي ونصف أجنبي، فترى الناس الذين عافاهم الله يتقون هراءهم ويجتنبونهم، أما صبيته الحي فيقتفون إثرهم يتفرجون!!، ظنوا أنهم بذلك بلغوا مجدداً - ومن أقصر سبيل -، ولكنك - والحمد لله رب العالمين - لا تعدم أن تسمع رزينا هداه الله وأثار بصيرته يقول لأحدهم ما قال الشاعر:

لا تطلب المجد إنَّ المجد سلَّمه

صعب وعش مستريحاً ناعم البال

من أدبائنا نفر تبنى شعارات شرقية أو غربية مضللة، هؤلاء لا يُرجى منهم خير، ومن رجا خيراً منهم فقد كدم في غير مكدم، واستسمن ذا ورم، وقد سفه وأعون أحلامهم، وبيئوا عرجهم لجماهير أمتنا، فشكا أولئك المقلدون إلى سادتهم أمم الفساد، فكانت شكواهم كشكوى الجريح إلى العقبان والرخم. صاغوا أدبهم وفق قوالب أدبية فنية شرقية أو غربية، متخذين أصحابها أئمة أدب وأساطين نقد، ناسين أو متناسين أن لأدب الاسلام صورة خاصة مميزة، وشخصية مستقلة، وهو براء من كل ألوان الشعر الجاهلي، قديمه وحديثه على حد سواء، جاهلي ما قبل الاسلام، وجاهلي القرن العشرين، أدبنا الاسلامي إسلامي وكفى، وهو يسعى أن يغرس بذور ايمان، ويسعى أن يُذيع أدباً جميلاً راقياً مهذباً في نفوس الأجيال، ونحمد الله ربنا العظيم أن وجدنا شاعرنا العظم

لا شرقياً ولا غربياً، لا اشتراكياً ولا رأسمالياً، وإنما وجدناه حنيفاً مسلماً وما هو من المشركين، وجدناه وجود بشعر كأنما ألفاظه رصاصات، وكيف لا يكون كذلك، وقد رأيناه ينهج نهج شاعر الاسلام الأول، وجدناه يسير على خطا شاعرٍ قال فيه عليه الصلاة والسلام: «لَشِعْرُكَ أَشَدُّ عَلَيْهِمْ مِنْ وَقْعِ النَّبْلِ»، وجدناه يتأثر بشاعر يرى شعراء الكفر يناوشون الاسلام ورجاله، فيُخْرِجُ لسانه قاتلاً للرسول عليه السلام: هذا لساني يفلقُ الصخر ويحلُقُ الشعر، هذا هو الشاعر الذي سار شاعرنا على خطاه، فوجدناه يقول:

وراية الشعر للإسلام أرفعها

كالشمس يُشرق مجلواً بأوزان!

يعيش حسانٌ في قلبي وفي قلبي

فهل بلغتُ بشعري روح حسان؟<sup>(١)</sup>

ذلكم هو حسان، شاعر الاسلام الاول، وشاعر الرسول عليه السلام بلا منازع.

إنَّ المتصفحَ لأشعار شاعرنا يلمس - وبوضوح - أن تأثره انما كان بالقرآن الكريم - كتاب الله الخالد المحفوظ -، لم يكن تأثره بشعري ولا بغربي، فاقتبس من القرآن ما اقتبس، وضمَّن أشعاره بعضاً من مفرداته وتعابيره، وما أكثر ما نجد مثل هذا في شعره، من ذلك:

من نداء في الغار يشرق بالنو

ر ويسري في الأفق عبر البسطاح

سبحتُ فيه مكةً إذ تجلَّى

نور ربِّ المشكاة والمصباح<sup>(٢)</sup>

وليست بعيدةً عن أذهاننا الآيةُ الكريمة: ﴿مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ...﴾<sup>(٣)</sup>.

(٣) النور ٣٥.

(٢) ص ٤٦.

(١) ص ٤.

ومن ذلك :

وَقَفَ الشِّعْرُ حَائِراً فِي ذَهْوِل

وتواری يرتدُّ وهو حسير<sup>(١)</sup>

وليست ببعيدة عن أذهاننا الآية الكريمة ﴿يَنْقَلِبُ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئاً وَهُوَ حَسِيرٌ﴾<sup>(٢)</sup> وكذلك قال شوقي «وأعظم من حيرة الشعر في فمي»<sup>(٣)</sup>، كذلك قَوْلُ شاعرنا :

مدفع «بالرستاق» و«الحزم» مالها

كأعجاز نخلِ خاويات جواثم<sup>(٤)</sup>

متأثر بقوله سبحانه وتعالى : ﴿كَأَنَّهُمْ أُعْجَازُ نَخْلِ خَاوِيَةٍ﴾<sup>(٥)</sup>.

وقوله :

هتف الظالم الغشوم تقدّم

وطأ الحقّ في مرابع زمزم

واهدم البيت أيها الفيل

ففي إثرِكَ الخميس العرمم

ومضى الفيلُ زاحفاً لا يبالي

بشيوخٍ من هاشمٍ أو جرهم<sup>(٦)</sup>

فهو إشارة إلى القصة القرآنية المعروفة، قصة أصحاب الفيل، الفيل الذي جهّزه أبرهة الحبشي ليهدم الكعبة، ويصرف الناس عن بيت الله العتيق، ولكن الله سبحانه صرف عن بيته كيد الفاسقين، وقد أشارت إلى ذلك آيات سورة الفيل.

هذا نهجُ شاعرنا العظم، وهذه سبيله، يدعو إلى الله على بصيرة، فلقد أدرك بثاقب البصر والبصيرة، أن لا خيرَ في شرق ولا في غرب، وأن ارتجاع نصرٍ

(١) الشوقيات ج ٣ ص ١٤٠.

(٢) الملك ٤.

(٣) ص ١٢٦.

(٤) ص ١٤٣.

(٥) الحاقة ٧.

(٦) ص ١٣٠.

من أعداء الله كالمرتجي ماءً من سراب، أو كالمرتجي وُدًّا من أفعى، وأن من يهجر القرآن ليقنات على فتات الأمم، كمن يدع النبع الفيّاض العذب الثرثار، ليرتشف قطرات ملوثة من حُفَرٍ صنعها الأقدام، فنصُرنا لن يتأتى بغير القرآن، ونكبائنا وهزائنا المتتابعة لن تكون ذريعة لنبد الدين كما ذهب حمقى ضالّون، فالقرآن، والقرآن وحده، ينير لنا السبيل، سبيل الكرامة والعزّ، ولن نذوق طعماً لنصر ما لم نستغفر، ما لم نُعدّ إلى الله الناصر، بعدها لن يغلبنا أحد، وصدق شاعرنا إذ يقول:

ولئن داهمنا خطبُ فلن  
نهجر القرآن . . . أو ننسى الإله  
وإذ الظلمة طافت بالدُّنا  
أشرق الفجر علينا . . . فطواها!!<sup>(١)</sup>

فوا عجباً لصغار العقول، كيف يجهلون أننا في ساعات الخطوب أحوج ما نكون لأن نذكر الله فيذكرنا!!، فإنما النصر «في الشرعة السمحاء» كما قال شاعرنا:

قل للذين أرادوا هَجَرَ شرعتهم  
النصر في الشرعة السمحاء لو عقلوا<sup>(٢)</sup>  
وسلّ المتفرنجين، شرقِيهم وغربيهم، سيقولون: الدين رجعيّة وتأخراً  
هَجَرنا منابع الخير فينا، وصرنا كأيتامٍ في مأدبة لثام، نتطفّل على موائد الشرق  
والغرب، فأصعنا الخير الخير، وشاع فينا كثيرٌ يجرُّ علينا غضبَ الله:

قد هَجَرنا منابع الخير فينا  
وارتوينا من كل نبعٍ مكدر  
وطمسنا مشاعل النور جهلاً  
وتبعنا الضلال ينهى ويأمر

(١) ص ١٢٢ .

(٢) ص ٤٠ .

والجموع الحيرى يضلُّها «الكفر»  
فتلهو بكلِّ حقٍّ وتسخر  
لا تبالي إن سادَ فيها لثيم  
أو تمادى منافق وتجبَّر  
كل يوم ضحيَّة وشهيد  
أو طريد في الأرض أشعث أغبر<sup>(١)</sup>

رَكْنَا إلى أننا كثير، وأنا مئات ملايين، ونسينا أن النصر لا يكون بكثرة، فمن  
قبلُ أعجبنا كثرةُ يومٍ «حين»:

هل نُصِرْنَا «بالعدِّ» يا ليت شعري  
في ضفاف اليرموك والأُسُدُّ تزار؟  
أم نُصِرْنَا بعدَّةٍ وسلاحٍ  
وسلاح العدو أمضى وأكثر؟  
أم دَحَرْنَا في القادسية جيشاً  
بخميسٍ «مهلهل» مستأجر؟

ورفعنا شعارات فارغة لا تُغني، نادينا باقليميات وعصيات ما أنزل الله بها  
من سلطان، وأقحمنا في أفهام الأمة المحمدية إلحاداً شرقياً أو مكرراً غريباً،  
وتغافلنا أن النصر باقٍ بعيداً حتى نعود وكما كنا. . . جنداً لله بحق:

أم بجيشٍ شعاره دون خوفٍ  
لا يهاب الحمام: «الله أكبر!»  
مَرَّقَ الظلمَ زحفه يتحدى  
جحفَلَ الظلم، بالعقيدة يزخر  
علمَ الفرس والعُروش تهاوى  
أنَّ عَرَشَ القلوب أنقى وأطهر<sup>(٢)</sup>

«عرش القلوب!»، ما أوقعه في النفس وما أصدقه! بل ما أحوج الأمة إلى

(١) ص ٦٢ وما بعدها.

(٢) ص ٦٤.

مثله! ما أحوج أمتنا إلى «عمر» جديد، يلتفتُ بعباءة ويستلقي تحت ظلِّ دوحه،  
ترعاه عين الله، فيحرسه «عرش قلوب»، ولقد أحسن حافظ إبراهيم حين قال:

وراع صاحب كسرى أن رأى عمراً  
بين الرعية عطلاً وهوراعيتها  
وعهده بملوك الفرس أن لها  
سوراً من الجند والأحراس يحميها  
فوق الثرى تحت ظلِّ الدوح مشتملاً  
بيردة كاد طول العهد يبليها  
فهان في عينه ما كان يُكبره  
من الأكاسر والدنيا بأيديها  
وقال قولة حقٌ أصبحت مثلاً  
وأصبح الجيلُ بعد الجيل يروها  
أمنت لَمَا أقمت العدل بينهم  
فنمت نومَ قرير العين هانيها

وشتان شتان بين «عرش القلوب»، وعرش الجنود.

قومنا «استوردوا» التقاليد والمبادئ، عدا عن اللباس والطعام، ومن أعداء  
الله، وتحاذلنا وأضعنا الحمى، واستبدلنا حمية جاهلية بحمية الدين، التي بها  
ساد الأجداد، فسَطَّروا صفحات مجد:

يا لقومي ماذا دهانا لنمسي  
أمةً همُّها الفتاتُ المبعثر  
لو سَلَكْنَا دَرْبَ الْعَلَا لَبَدَّرْنَا  
وزرعنا في كلِّ أرضٍ غضنفر  
وحميننا العرين من كلِّ ظلم  
ودَحَرْنَا الْعِدْوَانَ وَالظَّلْمَ يُدَحِر

ولما جت ساحاتنا بالسرايا

يحمل «الراية المنيعه» جعفرًا<sup>(١)</sup>

﴿ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين﴾<sup>(٢)</sup>، يزور خرو وتشفو أسوان، ويخطب في جماهير الأمة «المسلمة!»، ويقول في حفل افتتاح سدّها بخبث وحقّد: «نحن لا نقدم العون من أجل وحدة عربية، وإنما من أجل المباديء اللينينية العظيمة!»، وكأنّ السامعين «لينينيون» كلّهم وملحدون، مثل هذا جدير أن يحرك أوتار قلب كلّ مسلم، فكيف به لا يحرك أوتار قلب شاعرٍ تعلق فكره وحسه ودمه بشعار «الله أكبر!»، فوجدناه يقول في قصيدة معبّرة صادقة العواطف عنوانها «مهلاً . . . يارفيق!!»<sup>(٣)</sup>:

قل لضيفٍ في ربوع النيل تاها

وتغنى بفخارٍ - وتباهى

نحن لا نرضى بغير المصطفى

أو نرى فينا إماماً غير طه

الله الله!!، أقسم أنني ما ان قرأت البيتين حتى أحسست وكأنّ شعري جسدي غدا ابراً انتصبت، شعرت وكأنّ حرارة أخذت تسري في أوصال الجسم، خيل لي وكأنّ سلكاً مكهرباً اتصل بجسدي، كنت قبلها يغشيني شيء من نعاس، فصرت بعدها يقظاً متوثباً متنبهاً، حتى خيل بأن عيني جحظتا، وحقّ لمثل هذا الشعر أن يحرك أوتار قلوب، وحقّ لمثله أن ينبّه راقدين، حقّ لمثله أن يثير في نفس مسلم حمية اسلام ما زالت في القلوب، فماذا قلت في نفسي؟ قلت وقلت الكثير، أخفيته، ولكنّ اللسان - كعادته - أبى إلا أن يبوح بعبارة قصيرة قصيرة، ولكن فيها ما يكفي ويُفهم من أراد أن يفهم: «أمتنا بخير». ووقف بصري حائراً، ولكن بصيرتي راحت تتابع القراءة:

وإذا حدّثتنا عن شرعة

حققت في أرضكم عزاً وجاهاً

(١) ص ١١٩ وما بعدها.

(٢) الأنفال ٣٠.

(٣) ص ٦٥.

فَلَقَدْ أَشْرَقَ فِينَا شِرْعَةٌ  
 مِنْ سِنَا الْقُرْآنِ لَنْ نَرْضَى سِوَاهَا  
 يَا لَتَرْتِيلَةَ بَرٍّ وَهَدَى  
 مَلَأَتْ مِنَّا قُلُوبًا وَشَفَاهَا  
 فَتَوَاضَعُ ضَيْفِنَا فِي أَرْبَعٍ  
 خَصَّهَا اللَّهُ . . . وَبِالنَّيْلِ حَبَاهَا  
 وَاخْفِضِ الرَّأْسَ قَلِيلًا أَنْتِ فِي  
 عُدُوةِ الْأَبْرَارِ . . . عَاشُوا فِي حِمَاهَا

وليتمعن القارىء قوله «لن نرضى سواها»، «فتواضع ضيفنا»، «واخفض الرأس» فسيحسُّ بعزة الايمان وكرامة الاسلام، إن كان معافى .

وذهب «الزعيم!!» «الخالد!!» أبو خالدا!!، أخذه الله إليه، وهل من الله مهرب إلا إليه؟؟، وذهبت مبادئ لينين وزمرته عن أرض الكنانة أدرج الرياح، وطاشت سهام «خروتشوف» وأحفاده، وانقبرت أصنام الألحاد، وظلَّ «الله أكبر» عالياً مدوياً في أسوان وغير أسوان، لا تقرُّ إلا به العيون، ولا تطمئنُّ إلا له القلوب:

لَا تَظُنُّ الشَّعْبَ فِي مِصْرَ غَدَا  
 بِلشَفِيًّا أَوْ «عَمِيلاً» فِي رَبَاهَا  
 نَحْنُ مِنَّا بِأَكَالِيلِ الْعُلَى  
 تَوَجَّ الْمَجْدُ رُؤُوسًا وَجِبَاهَا

وليتمعن القارىء كذلك قول شاعرنا «نحن منَّا توجَّ المجدُّ رؤوساً وجباه»، نعم، منَّا، من أمة الاسلام، من أمة القرآن والتوحيد، ألا يرى القارىء في هذا عزةً إيمانية، تحرسُ أمامها عزةً الاقليمية، التي عبدناها من دون الله؟؟؟ نعم، منَّا وبلا كبرياء، وبلا فخر، وبقلب يكاد ينفطر ألماً، هَجَرْنَا الدِّينَ، وَأَدْرْنَا الظهور لشرع الله، فَضِعْنَا، وَأَذَلْنَا عَدُوَّ مِثْرَبِصَ، وَشَمَّتْ بِنَا يَمِينِ حَاقِدِ، وَأَهَانْنَا يسَارُ خَيْبِثِ مَآكِرِ، طَوَّيْنَا رَايَةَ جِهَادِ شَرَفْتَنَا، وَتَغَنَّيْنَا بِسَلَامِ اسْتِسْلَامِ:

جَبَلُ النورِ في القلوبِ ظلامٌ  
مُدَّ هَجَرْنَا مشاعِلَ الأنوارِ  
ضاع قومي في الحادثاتِ وذُلُّوا  
وتمادوا في خُسْفَةٍ وصغارِ  
بينَ ذُلِّ يُمْلِيهِ سوطُ يمينِ  
وهوانِ يُمْلِيهِ سوطُ اليسارِ  
أسكرتهم خمرُ الضلالِ فباتوا  
في «ضِياعٍ» بصحبةِ الخُمَارِ  
وطووا رايةَ الجهادِ سُكاري  
وتلَّهُوا بالطبلِ والمزمَارِ<sup>(١)</sup>

والمسلم دائماً يقف على أرضٍ صلبة، فلا يركنُ إلى أمم الضلال والفساد، شريقها أو غريبها على حدِّ سواء، وسيظلُّ قولُ «أمير!» الشعراءِ مخاطباً الرسول عليه السلام: «الاشتراكيون أنت إمامهم»<sup>(٢)</sup> لا نصيب له من واقع، فللإسلام نظامُهُ وأفكارُهُ وعقيدتُهُ ومنهاجُهُ، هو مِنْ وَضَعِ خالِقِ عظيمٍ لطيفٍ خبيرٍ بما يُصلِحُ أمورَ عبادِهِ، ليناسبَ مخلوقاته في كلِّ زمنٍ وكلِّ أرضٍ، حتى تأتي ساعةٌ لا بدَّ آتيةً، فيرث سبحانه أرضه ومَنْ عليها، وشتان شتان بين منهاج الله العظيم، وبين منهجٍ وَضَعَهُ بشر، شريقون أم غريبون، يساريون أو يمينيون، فكلاهما يريد لأمةَ الاسلام الموت، ليسكرَ على الأشلاء، ويرقص على الأناقض، هذا ما يجول في خاطر المسلم، وهذا ما جال في فكر شاعرنا، فوجدناه يقول:

كان اليمينُ لنا ذُلًّا يمزُقُنَا

وفي اليسار لنا بؤسٌ وويلات<sup>(٣)</sup>

ومن قبله وجدنا شاعراً آخر من فلسطين، هو المحامي الشرعي عمر قشير يقول: «الاشتراكيون لست إمامهم» ويقول «والرأسماليون لست ظهيرهم».

(١) ص ١٦٠ و ١٦١.

(٢) الشوقيات ج ١ ص ٣٤.

(٣) ص ٢٠٥.

ومثلُ هذا باتِ راسخاً في القلوب، وبات له جذور، أذكر ومنذ ثلاثين سنة، حين كنت يومها تلميذاً صغيراً، أن أستاذنا يومها الشيخ محمد سعيد الجمل، خطيب المسجد الأقصى هذه الأيام، قرّر علينا حفظَ أبياتٍ لشاعر من فلسطين، هو اليوم الطبيب يونس شناعة، أذكر منها:

متى الاسلام في الدنيا يسود  
ويُشرقُ بيننا الفجر الجديد  
متى يا ربُّ ترحمنا فإننا  
أضربُ بها التخاذلُ والقعود  
وأمریکا تخدّرنا ليقى  
لها بترونا الكنزُ الفريد  
وروسياً تلين لنا ولكن  
وراء اللين داهيةٌ حروءُ

كان قد مضى على رحيل اللاجئين الفلسطينيين يومها سبع سنوات، وكانوا حينها يهَيِّئون حقائبهم ليعودوا، كانوا قد صدّقوا ما سمعوا من المذيعات: «يا فلسطين جئنا لك، جئنا جئنا لك جئنا لك»، كانوا يطربون ويتفألون حين يسمعون: «عائدون، إننا لعائدون»، كانوا يرددون: «أنا لن أعيش مشرداً، أنا لن أظلّ مقيداً»، وكانوا يغنون:

فوق أرضي لن يمرُّوا  
وبها لن يستقرُّوا

كانوا يمتنون النفس ويقولون:

لن ينام الشأُر في صدري وإن طال مداه

«ومرّت الأيام» كما قالت العجوز التي أطربت!، وأسكرت!، وخدّرت! وانقضّت سنون، ودارت أعوام، فتركوا الخيام، وأُسكنوا في بيوتٍ من حجر، وما عادوا يزرعون الخضار تُؤتِي أكلها في أيام، وصاروا يزرعون الزيتون والتين، حيث أدركوا أن «الاقامة» ستطول، ولكنهم لم يجيئوا إلى فلسطين بعد، وزدنا

على فلسطين بلاداً أخرى فوقها، لم يعودوا بعد انقضاء خمس وثلاثين من الساعات أو الليالي أو السنوات، وعشنا وما زلنا مشردين، ومقيدين، ومرؤوا فوق الأرض واستقرؤوا واستقرؤوا، ونمنا ونمنا، حتى أزعج «شخيرنا أمم الأرض»، لم ينفعنا تشدقُ بأمجاد، ونام الثأر في الصدور وما زال، وعاش الذي عادانا بسلام وهناء.

وتحقق ما توقعوا، ولكن، بعد لأيٍ وانتظار، فلقد شغلنا عن قرآننا بغناء، كما سنبين فيما يأتي.